بسّام حجّار



مُجرَّد تعب



بسّام حجّار

مُجرَّد تعب



بسّام حجّار

مُجَرَّد تَعَب



شارع روما، بناية فارس
هاتف: ٦٩٩ ٣٥٣ ـ ٦٩٩ ٣٥٤
تلكس: NHRPS ٢٠٤١٧ LE

ما قاله أبي

حكاية الرجل الذي صار ظلًّا..

«حين يتحدّث الغربيون عن (أسوار الشرق)
فمن الممكن جداً أنهم يعنون بذلك هذا السكون
المُحيِّر قليلاً الذي يضفيه الظلّ (...)»

(جونيتشيرو تانيزاكي: «مديح الظلّ»)

ما كنت منذ البداية هكذا. أقصد لم يخلقني الله هكذا، وحيداً ومتروكاً للحيرة اذ لا أجد مَن يصحبني وأكون ظلّه. ولكن ليتني أذكر بالدقّة التي تتوخّون كيف جرى لي ذلك فأصبحتُ ما أنا عليه الآن، أو منذ بعض الوقت.

أجدني لا أقوى على الحركة، مقيماً سوية البلاط لا أبرح. وما يدور عليّ من مواقيت يبدّل من أحوالي وهيئتي، فلي مع تبدّلات الإضاءة بين مواقيت النهار والليل قصص أعجب من أن تُروى هنا، ولا يتّسع لها مصنّف كامل من ترّهات بورخيس. فالصباح يجعلني منبسطاً على سوية الأرضية المُلمّعة، والظهيرة تلصقني بالأشياء العمودية الواقفة ولا تتعب، ثمّ تتدرّج بيَ الحالُ إلى استطالة تُشوّه قوامي الطيفيّ حتى يكسرني الغروب بإنعكاسه الشفقي إلى نصفين. نصف من أسفل الركبة إلى القدمين والنصف الآخر من أسفل

الركبة أيضاً إلى هامتي، فأقف بانحراف ظاهر على جدار ولا شيء يسندني، إلى أن يحل الظلام فيذيبني في كنفه كأنّني قطرات حبر أو ماء ملوّن تمتصه ممحاة غريبة لا قوام لها. بلى، ما أخطأتم الحسبان، فما أتحدث إليكم عنه هو الظلّ الذي صرته منذ بعض الوقت، لذلك يصعب أن يبصرني أحدُكم في الليل أو في عتمة المكان. كأنني أنتمي إليه أو أصبحت ملكاً له مذ غادرني صاحبي وانتظرته طويلاً هنا ولم يعد. فقط بوسع واحدكم أن يراني في الضوء. في ضوء فاضح لا أرى منه شيئاً. وطبعاً لن أشرح لكم هنا ما تعرفونه جيّداً بأنّ الظلّ لا يَراكُم حين ترونه جيّداً لكنّه يلازم حركاتكم وسكناتكم ولا يغادركم إلّا حين تلوذون بأسرّتكم الدافئة وتحلمون. ألمعيٌّ هناك يقول: وماذا عن السير في الظلمة حيث لا ظلّ يتبعنا؟ فأقول من فم الظلال إيّاها إذا جاز لي أن أقول: يكون مَن هو مثلي فدية نجاتكم من العبور إلى الجهة الأخرى. ليتخيّل أحدكم الظلام مرآة، ولو مُعتِمة، يسير بمحاذاتها على وجه الدقّة، ويصحبه الظلّ، ظلّه، في الجهة الأخرى من المرآة حيث يسود الظلام، ولن يخطر ببال أحدكم الأهوال التي يصادفها مَن هو مثلي هناك. ولكن لندع هذا الأمر جانباً، فليس في نيّتي أن أشكو أو أن أجعل من ذاتي المعدومة رمزاً لبطولة الخوض في عالم الظلمات وإلّا لأدركني المساء قبل

أن أروي على مسامعكم ما صرتُ إليه منذ بعض الوقت.

ذات يوم ألفيتُني وحيداً. كان الوقت مساءً والظلمة حالكة فلا يبصر صاحبي إصبعَه حتى لو ألصقها بعينه الحاذقة. كان مستلقياً على الكَنَبَة في ثيابه المعتادة وكان يجهش في البكاء. يشرب كأساً تلو الأخرى، ويُشعل سيكارة تلو الأخرى، ويجهش في البكاء. وكانت الظلمة قد أذابتني في كنفها وامتصّتني لكنني، في هيئتي السائلة، كنت أقعي عند قدميه لا أغادر. أُشبهُ صاحبي في كلّ شيء، أقصد في ما عدا التشوّه الذي يسبّبه لي تبدّل الضوء فَيُقَزِّمُني أو يمطّني لكي أبدو دميماً، أُشبه صاحبي إذاً في كل شيء ولكنني ما سلكت نعمة البكاء أو عرفتها من قبل. وعلى الرغم من وفائي لصاحبي ما تمكّنت يوماً من مجاراته أو إبداء التعاطف بدمعة أَذرفُها حتى ظننتُ يوماً أنني من الغلظةِ والفظاظةِ ما يفوق الوصف. كان صاحبي يجهش في البكاء. ثمّ غادرني. سمعتُ دويّاً أو ربما جلبة ارتطام هائلة، لست أدري. وفي اليوم التالي وجدتني هنا وحدي. وفي اليوم الثالث أيضاً. وفي الأيام التي أعقبت ذلك إلى اليوم، بتُّ وحيداً لا قدرة لي على الحراك من مكاني. زوجة صاحبي وابنته لا تعيران انتباهاً إلى الدُكْنةِ الطفيفة التي تبقّع البلاط وموضعاً واطئاً من الجدار. وذات يوم،

جاءت الزوجة بالممسحة وعدّة التنظيف وحاولت أن تمسحني بكل ما أُوتِيَتْ من قوّة وعصبية ولم يُمْحَ من هيئتي شيء. فَحَسِبَتْ أنّني مجرّد بقعة من الرطوبة تسرّبت من أسفل الحائط إلى البلاط. وكفّت عن المحاولة. وأَصْبَحَتْ تُحاذر إذا مرّت بقربي أن يداني ظلُّها ظلّي خوفاً من بلَلِ الرطوبة وشؤمها وكم وددتُ أن يألفني ظلُّها فأصبحُ ظلّاً له علَّني أجد مَن أتبعه في روْحاته وغدواته. حتّى الابنة لم تتعرّف إليّ وكنت دائماً في صحبة ظلّها حين يرافقها صاحبي في نزهة قصيرة في الجوار. ليس بوسعي أن أكون شبيهاً به لأنّ لا مظهر ولا هيئة لي. كان وسيماً، مستقيمَ القامة إلى نحول، عصبيّ المزاج والحركة. وكنت أُحاكي حركاته وسكناته ثمّ غادرني ولا أعلم إذا كان يصحبه ظلّ آخر هناك. وأصبحت هنا بلا نفع أو قيمة حتى وددت لو تمرّ بي سلحفاةٌ فأكون ظلّها، لو يمرّ بي كلب فأكون ظلّه، أو حصاة فأكون ظلّها. ذلك أنّي بتّ أخاف أن تمتصّني الظلمة مرّة واحدة وإلى الأبد. ماذا أفعل بالضوء الذي يطلع كلّ صباح إنْ لم ينهض صاحبي من نومه، بجسمه كاملاً. الرأسُ والذراعان والجذعُ والساقان، لكي أتبعه فتدوسني أقدام السابلة ولا ينال منّي ألمٌ، بل أُواصل زحفي الخفيف بين الحصى والنُقَحِ والعجلات والنفيّات، لا تعيقني أو تلوّثني، خفيفاً وقانعاً لا أعرف لسعادة الصُحبةِ مثيلاً.

ماذا أفعل الآن إذ غادرني وانتظرت طويلاً وما عاد بَعدُ؟ كيف أقضي ملاوةَ الدهرِ، فلا عمر لي، في الركن وحيدًا؟ ما الذي يُبقيني على قيد الحياة؟ أسِفٌ، لا بدّ أنكم أدركتم خطأ العبارة. أقصد ما الذي يُبقيني، على أن تكون الحياة لكم ولسواكم ولمَن يرغب أيضاً. لا تزيلني أحماضٌ ولا يُحطّمني ثقلٌ ولا يطمرني تراب. رحماك أيّها الضجر!

مَا قَالَه أَبي عن الشجرةِ والكناريِّ والسُّعَالْ

لسببٍ أو دون سبب، ولأسبابٍ كثيرة أحقد على المارّة الذين لا أعرف أحداً منهم وأجهل ما صنعوا بي وما يصنعون في الأيام الآتية، وعلى البائع الجوّالِ الذي يبدّد خيبةَ أعوامه الستين بين الحواري، وعلى الكلبِ التائهِ لأنّه أسود ولأنّه الكلب الذي تظلّله شجرة منفردة، وعلى الشجرةِ إذْ تبذلُ ظلالَها رخيصةً على الإسفلت والحُفَر ومسارب المجاري.

ولأسبابٍ أخرى أحقِدُ على النافذةِ وأجِدُني واقفاً خلف النافذةِ لا أزالْ.

أعرف جيّداً أنّه ليس مؤلماً على الإطلاق أن تقف خلف النافذة كما يفعل مَن ينتظر شيئاً، أحداً ما، أو مَن يدفعه الفضولُ إلى الإطمئنان مرةً ثم أُخرى إلى أنَّ الأشياءَ في الخارج ما زالتْ هناك وأنّه لم يَمُت بعدُ لكي يفقدها. ليس مؤلماً أن تقف هكذا وتعلم جيّداً أنّك لا تنتظر ولست فضولياً، ولست ممّن يفتنه مشرقُ الأنوار أو عليلُ الهواء. تقف هناك لأنّك

ينبغي أن تفعل شيئاً. أن تفعل ما لا تتعمّده أو تقصده أو ترغب فيه ذلك أنّك لسببٍ أو دون سببٌ، لا تشعر بالخيبة أو الحزن أو الألم، ولا تريد أن تكون هذه المشاعر التافهة من بين المشاغل التي تفسد عليك نومَك وبقظتَك فلديك من الأسبابِ ما يجعلك واقفاً هناك، هَمَلاً، شيئاً بين أشياءٍ تُرْفَعُ بعد وقتٍ في صناديق مُحكمة الإغلاق إلى رطوبة المخازن أو الأقبية أو الزوايا المهملة من الأبواب الخلفية وتُترك للسيان.

ليس مؤلماً أن تقف هناك، لا تعرف ماذا تفعل بيديك وإلى أي اتجاه تنظر وفي أية نقطة تحدّق. حتّى التنفّس، أقصد مشقّة التنفّس، ليست بمقدار ما رواه أبي. كان أبي على مشارف السبعين وقد اهترأت رئتاه من الرطوبة والوحشة والتدخين والخدمة العسكرية ومن التجوال منفرداً بين الغرف، كان أبي يقول وقد اهترأت رئتاه إذاً لسبب أو دون سبب، إنّه لا يتألّم إلّا حين يتنفّس، لم يقل إنّ في الأمر ما يدعو إلى التوقّف عن التنفُّس. إذ دائماً يحين الوقت الذي تعتاد فيه الألم، حتى إذا زالَ الألمُ أوْجَعَك غيابُه. ولم يقل إنّه اعتاد الألمَ بل قال شيئاً عن وحشةِ الأماكن الشاغرة. الخزانة الكبيرة خاليةٌ إلّا من قبعة الاستراخان. المشجب إذ يعلوه الغبار. السرير الذي رُفِعَت عنه الشراشف والأغطية وبقي الفراش عارياً أبهَ وحيداً.

الكنبات في ردهة الجلوس متقابلة كشقيقات مُسنَّات. السروةُ بمحاذاةِ الشرفةِ يُخليها الهواء. الحصاة وسط الشارع. ألغرف التي غادرها الزائرون. أعقاب السكائر. والرائحة التي تمكث خفيفة في الأرجاء. وقال شيئاً عن الوردةِ التي تشبه الفتاةَ وعن الفتاةِ التي أصبحَت بعيدةً وقال شيئاً عن المكان البعيدِ الذي يُناديه ويراه في النوم ثمَّ يراه في اليقظةِ وقال إنّه في عينيه. وعن أشياءَ أخرى لم يقل إنّها في عينيه لكنّها كانت هناك.

أعرف جيّداً، ليس مؤلماً إن وددت أن تكون هناك وما استطعت. فقط تقف شيئاً بين أشياء تُرفَعُ بعدَ وقت وتُحفَظُ للنسيان. وأذكر أنّه لم يقل شيئاً عن النسيان. فقط يجلس قبالة أحدنا ويحدّق في وجهه، يحدّق في عينيه، كأنّه يودّ أن يمكث هنيهة في العين التي رأته. وإذا مرّ به أحد أمسك بطرف كمّه. بطرف سترته حتى إذا التفت نحوه لم يقل شيئاً بل نظر إليه. كان أبي الذي اهترأت رئتاه من الحرقة والتدخين والتجوال بين الغرف منفرداً، يعرف أنّ النسيان حالُ مَن يقيم على الحافّة معلّقاً في الفراغ. إذا سار اتكأ إلى الجدار وإذا وقف أسندَ كفَّه إلى ما يكشح الفراغ من أمامه.

ليس مؤلماً قال. ولم يَبْكِ. ولم يُطلق زفرةً واحدة. كان المكان البعيد في عينيه وقال إنّ الأمرَ ليس مؤلماً. وكان لا يقوى على النوم ويخافه إذ لا

يعثر في النوم على يد يمسكها أو طرف ثوب يتشبّث به. ولسببٍ أو دون سببْ، ولأسبابٍ كثيرة كان يحبّ المارةَ الذين لا يعرف أحداً منهم أو يجهل ما صنعوا به وما يصنعون في الأيام الآتية. وكان يحب البائع الجوّال والكلبَ الأسود الذي تظلّله شجرة منفردة، ويحبّ الشجرة إذ تبذل ظلالها رخيصة على الإسفلت والحفر ومسارب المجاري.

ولأسباب أخرى كان يحب النافذة وما عاد الآن واقفاً خلف النافذة.

كان يعلم أنّ الأمر ليس مؤلماً إن وَدِدْتَ أن تكون هناك. ويحبّ أن تراه عينُ مَن أحبَّ وأن يمكثَ هنيهة في العينِ التي تراه.

ولا أعرف إذا كان أبي قد أحبَّ الموت. ولا أذكر أنّه قال شيئاً عنه. قال أشياءَ أذْكرُها عن الشجرةِ والكناريِّ والغرفِ والسُّعال.

وقال وَدِدْتُ أنْ أكونَ السَّروة هناك.

المَشَاتِيْ البعيدة

ألِكَيْ تردّ لنا خيبةَ ما أَنْبَتْنَاهُ من الشوكِ في أعمارنا تُمطر الآن هملانَ مياهٍ دكناء تنسرب متمهّلة على زجاجِ النوافذ المطفأة وعلى الشرفات الخالية؟

كنت أحسب أنّ شتاءً واحداً يكفي لعمر بأكمله وأخطأتُ الحسبان إذ يُدركني الآن عَبَقٌ من برودته الموحشة.

كنت أحسب أنّ شتاءً وحيدًا يكفي ولا ننساه لشدّة ما يجمعنا في عزلات، منفردين، وحيدين، لا يدرك واحدنا جدوى أن يمكث بين جدران مغلقة. والشتاء طريقة في الكلام، تشبيه وحسب، لكننا نصدّق بَرْدَه ثمّ ندرك، بعد الفوات، أنّ في داخلنا ردهات فارغة إلّا من مشقّة الانتظار.

وندرك أنّ الانتظار هو المشاتي البعيدة لجسومنا المرهقة من ثقل رغباتنا وثقل كتمانها والإنصات إليها، كأنّ ما يواصل السعي فينا تذكار الغبطة التي ما أَحْسَنَّا عيشها آنذاك فأَخْلَتْ أرواحنا مرّةً وإلى الأبد.

أَلِكَي تَدفعنا إلى المشاتي البعيدة تُمطر الآن بصمت فلا نسمع في عزلاتنا إلّا ما تُخَلِّفه وحشةُ الأماكن من أصوات. ليس لأنّها تشبه أن تكون قرقعة أو سحّاً أو حفيفاً أو ما يترامى من روح الخلاءِ إذْ يعول الخلاءُ خافتاً مهدهِداً ومُطَمْئِناً، بل لأنّها تشبه أن تكون الهمسَ يلامس بخارُه الحارُّ طرفَ الأذن وأعلى الرقبة، فيكون الكلام، ولو مكتوماً نصفه، بلَلاً ودفئاً رطباً.

ونسأل بالحيرة التي تصنعها عينان حائرتان، ما الذي يصنعه الشتاء لكي يجعل الأماكن بعيدة. لكي يجعل أرواحنا كالمشاتي. طرقات وشعاب ومسالك وممرّات بين حيطان متداعية وأشواك وحصى مبلّل وروائح تراب جمُدت في الهواء كبقع وهمية لا تبرح مكانها. كالمشاتي التي يقصدها المسنّون لكي يدرك المسنّون أنّ المشاتي هي الأمكنة التي لا تضجر من البقية المتبقيّة من أعمارٍ لهم كانت تنقضي من دون أن ينتبهوا. ويصحبون معهم القطَّ المعمّر والكلبَ العجوز، وبعضاً ممّا يذكّر بأعمارٍ لهم كانت تنقضي من دون أن ينتبهوا.

الصور والتبغ والمعاطف والعكّاز والحكمة الملفَّقة لمن يلفّق حكايةً ويصدّق أنَّها حياته الحقّة.

ذلك أنّ المشاتي ليست الأمكنة التي نذهب إليها ثمّ نعود، بل هي خرافة المكان التي تجعل الوافدين إليها خرافات تُنسج على حدة ولا تعود الحياة التي

سبقتها تشبه ما كانت عليه.

تذكارُ ما لم يكن.

سيرةٌ معلنةٌ لما يحدث. إنّما تجعله البقية، وهي ختامٌ، سياقاً لحياة كاملة، مسكةً لحياةٍ كلُّ شيء فيها حقيقي وله سند وقوام، سوى أنّها حياة غائبة.

شتاء واحد لأعمار كثيرة. الأحبة والأصدقاء.

شتاء واحد يتّسع للفضلات من كل شيء. لبطالة الروح في ساعات لا تنتهي.

ونهارات لا تنتهي.

وأمسيات لا تنتهي، ومثلها الحكاية التي يصدّقها المسنّون عن أعمار كانت لهم.

كان الرجل يحيا وحيداً وكان الشتاء.

إنّها مجرَّد استعارة.

كان الشتاءُ وكان الرجلُ يحسب أنَّه يحيا!

هي ذي الأبوابُ المُغْلقةُ

«اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيّق. وأقول لكم: كثيرون يسعون أن يدخلوا، ولا يقدرون».

(لوقا، ١٣ : ٢٤)

حسناً لم أصدّق حين قال الغريب أنّ السّروةَ شَجنُ الشجرةِ وليسَ الشجرة. وأنّها لا تقيم إلّا بجوار الحجرات البيضاء، هناك، وحين قال: لا ظلّ لها لأنّها ظلُّ الشجرةِ وإنّ السّروةَ هتافُ الوحشةِ إذْ يمرّ بها السابلةُ ويدركون أنّها مشجب الأصداء.

أو ربّما كانت الشجرة التي بَرِحَتْها الحياةُ ومكثت بين الحجرات الضيّقة لكي تلتمَّ فيها أصداء ما يرويه الغريب عن الشجرةِ التي يسمّيها السّروةَ ويقول إنَّها شجنُ الشجرةِ وليسَ الشجرة.

والغريب أراه حين أراني ولا يكذب قولُه لأنّه شجنُ القول.

ولأنّه التَّصْدية.

ولأنّه صوت ما يجيبني من جنبات الوحشة بمثل صوتي.

ولأنّه غريبي أنا، ولأنّي غريبه جَعَلْنا نصدّق ما ترويه السروةُ عن الغريب لا يقيمُ في جوارٍ ولا

تبصره العيون إلّا طيفاً يمرّ بالحجراتِ البيضاء هناك.

وكانت السّروةُ صحبةَ أبي حين غادرني وكانت هناك إذ أومأ بيديه مرّة أخيرة. ولا أعلم، ولم يُخبرني أحدٌ من قبل إذا أودعَ صدى خطواتِه المتاقلة في سكون ظلّها أو إذا علّق تعبَ أعوامه على أعوادِها قبل أن يدخل إلى حجرته الضيّقة لينام.

وكانت السّروةُ لا تحرس نبعاً أو طيرَ الفضاءِ وإنّما الحشرات الزاحفة واليباس وبقع الكلس والسقيفة التي عَلَت فوق غمغماتٍ ومصافحة بكماء تتلقفّها الأيدي حارّةً وليست تدرك الأيدي يُتّمَ المصافحةِ أو العناق، أو تكاد، أوانَ الرحيل.

وكانت السّروةُ بين جمع تستدرك الوحشةَ وتميلُ إلى الجانب الأضعف من فضاء واهنِ الزرقة معتلِّ الهواء.

بين جمعٍ في يُتمها الباسقِ كأنَّ الألمَ هفهفةٌ من الرقراق في عيون دامعة، كأنّه الموضع الأرحب لغفران القسوةِ إذا القسوةُ كانت رجاءً لغُفران.

بين جمع تفرَّق في السكون المطبق لجدران واطئة وصلبان هي تقشّف المعدن المطروق أو خشب القطران، أو الحجر الأملس.

وتدلٍّ واقفة: هي ذي الأبواب المغلقة التي لا تُحْسِنُ أن تكون أبواباً أو نوافذَ أو حتى كوى.

فتحاتٌ للداخلين قصار القامة والأعمار، بِتُروسٍ

من الأقفالِ والفولاذِ البِلا قَلْب.

وتقولُ واقفةً: هوذا الأبيض الكاذب أسالته الصلواتُ وأيدي الحفارين على الجدران. هي ذي الطيور مكّارة التغريد ومكّارة السواد. والزنابق ذوت إذ تبذل الروائحَ سدى وأبيضَها العاجيَّ ليَبَاسِ الصيف وطَمِي الشتاء.

وما صدّقتُ الغريبَ إذ قالَ الغريبُ وللسّروةِ روح. وما صدّقته خوفاً أو رجاءً، إنّما خوفي أن تكونَ شجنَ الروحِ التي هامَتْ بين أعتابٍ وأبوابٍ طرقتها وحَسِبَتْ صمتَها ملاذَ الهائِمِ وما كانَ الصمتُ إلّا ترجيع الخلاء.

وللسّروةِ روحٌ ربَّما كانت جندبَ الظهيرةِ الثَرثّار، أو ربّما الأُوام، أو الأرق أو دوام الإنتظار بلا رجاء، أو ربّما الرجع، لست أدري، وليس يدري الغريب كيف تكون الأرواح هائمة وهي لا تشبه أن تكون بشراً أو شجراً، وقال إنّ السّروةَ شجنُ الشجرةِ وليس الشجرة ولا ظلّ لها لأنّها ظلُّ الشجرة، ولا يُحْسِنُ الظلّ أن يكون روحاً. ولأنّه غريبي صدّقتُ أنَّ الصدى روحي وأنّني ربّما كنتُ روحَ السّروةِ التي تُقيم بجوارِ الحجراتِ البيضاءِ هناك.

وكنتُ السّروةَ. لم أبْرح مكاني. وَهَبَني الشتاءُ ربْوَهُ المُزمنَ وأيبس الصيفُ بريقَ عينيّ.

لم أبْرَحْ مكاني. كنت أجمع الأصداءَ من كلّ صوبٍ ولم أعثر على نبرة الإختناق المكتوم في

صوته إذا نادى عليّ. وأدركتُ أنّ الصدى فتنةُ الأحياءِ إذا نَطَقوا أرجَعَتِ القفارُ أصواتهم مجوّفةً كأنّها طُرِقَت بِفِضَّةِ القِفار.

وأدركتُ أنّني السّروةُ لم أبْرَح مكاني أحرُسُ مداخل الوافدين بمفردِهم، بين الجموعِ، ولكنْ بمفردِهم. وإذ يُغلق الباب الذي لا يُحسنُ أن يكون باباً، أمكث هنا، لا أبرح مكاني، وإذ تلتمّ في جنباتي الأصداءُ من كل صوب لا أعثر فيها على الصدى المتهدّج لصوت قال لي إنَّه متعب وفي آخر العمر ولم يقل إنّه يحبّني. لكنّني رأيتني في عينيه. وكنت غريبَه وكان غريبي وصدَّقنا ما ترويه السّروةُ عن الرجلِ الذي لا يُقيم في جوارٍ ولا تبصره العيون إلّا طيفاً يمرّ بالحجرات البيضاء هناك.

وما كُنتُ الرجلَ بل شَجَن الرجلِ الذي يقيم هناك.

أَرْبَعون صَاحِبِيْ

لم يتبدّل شيء. أقصد أنّني لم ألحظ الفَرْق. فهأنذا. وتلك هي الأشياء الأخرى على حالها. الأثاث والجدران والصور والبراويز وساعة الحائط وعدّاد الكهرباء والنوافذ والأبواب. والرواق أيضاً. لم يتبدّل شيء ولو حدث فعلاً أمر مثل هذا لما انتبهت لشدّة ما يستغرقني التفكير في قدرة الأشياء على الثبات على حال واحدة. وأكون ربما أخطأت العبارة مرّة أخرى لو خيّل إليكم أنّ ذكر الأشياء على ما هي عليه في هذا الترتيب العادي والسخيف أمر يدعو إلى البَرَم أو التَضجُّر أو الشكوى. فالحقيقةُ أنّ مثل هذه المشاعر تدخل في عداد الهوايات النبيلة لمن لديهم المتسع الأوسع من الوقت، وفي مقتبل العمر، ويقرأون سارتر وكولن ويلسون في أوقات الفراغ، ويزاولون مهنة أو يذهبون إلى الجامعة أو يمارسون شتّى أنواع الرياضة البدنية. والحقيقة أنّ مثل هؤلاء أحيّيهم ولا أبخل عليهم بمشاعر الإشفاق

لكنّي الآن في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة. ولست أدري متى أو كيف وصلت إليها. لم أنتبه ولم يتبدّل شيء. فقط أصبحت رجلاً في الأربعين وعليّ أن أصرف المزيدَ من الوقت والإنتباه لأواصل التجوال بين الغرف والوقاية من الزكام وتخفيض حصّتي من السكائر إلى أربعين سيكارة في اليوم. وهذه كلّها أشياء حسنة على غرار أشياء أخرى جميلة وتدعو إلى البهجة والإقبال على العيش كما ينبغي.

ولستُ أدري إذا كان عليّ أن أفرح أو أحزن أو لا أبالي، لأنّ الأربعين، كالأعداد الأخرى، يمكن أن يصل إليها المرء إذا أحسن العدَّ على نحو ما يفعله التلاميذ في كرّاساتهم وعلى ألواح الخشب السوداء. فالأربعون مسألةٌ بسيطة ولا تدعو إلى تدابير غير معتادة كأن تسير على يديك أو تقلّد صوت الحمار والذئب والدجاجة، أو أن تغرق في التأمّل طلباً للحكمة وصفاءِ السريرة، كأنَّ الأربعين عتبةٌ إلى المجهول أو خوض في معلوم محيِّر. فأنا أعرف أناساً أسوياء بلغوا هذا المقدار من الأعوام وما زالوا أحياء يرزقون. حتى أنّ واحدهم لا يجد مشقّة في الإنتقال من الصالة إلى غرفةِ النوم وإن أرغمته الظروف وما يطرأ منها غادر بيته لغرض يقضيه ثمّ يعود. وعرفت من صغري كائناً بلغَ ما يفوق الأربعين بعامين أو ثلاثة وأذكر أنّه كان يضحك ويتحدّث ويحرّك يديه كالمُعافى لم يَنَلْ منه خطبٌ أو

كراهةٌ أو عياء. وكان، لذهولي الفاغر، يحمل جسمَه العتيق بزهوٍ ويُقبل على الشيءِ إقبالَ صِبْيَةٍ كأنّه لم يره من قبل، في سالف الأزمنة من أعوامه الأربعين، وهي، لعمري كثيرة تجاوز عدد أصابعِ اليدين الإثنتين والقدمين الإثنتين مضاعفاً.

لذلك حين قال صاحبي إنّ الأربعين شأنٌ تافه كالزكام، لم أنتبه وما وجدتني كئيباً ولم ينبت في موضع مني مثقالُ ذرَّة من الحكمة والجلال وما صيّرتني الأعوامُ في تَصَرُّمها أكثر ممّا كنت عليه وعجبت كيف تقدر الجسوم التالفة أن تكابد نزق نفوسنا، التالفة إيضاً، كل هذا الوقت. إذ كنت أحسب أنّ نفسي الأمّارة بالسوء والطيش وقلّة الدراية تحتاج إلى جسمين أو أكثر لكي تصل بي إلى مثل هذه السنّ المتقدّمة، وأنّ فماً واحداً لا يكفي وقلباً واحداً لا يكفي، ورئتين إثنتين لا تكفيان، وأنني واهمٌ بلا ريب إنْ ظَنَنْتُ عظامي الهزيلة قادرة على هذا العناء. ولكي أطمئنّ إرتجلتُ فكرةً أقنعتني مفادُها أنّ الرجلَ الذي أصبح في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة، رجلٌ سواي، يشبهني، على الرغم من الفروقات الواضحة، ويحمل إسمي وينام في سريري، وهو زوج زوجتي، ووالد إبنتي، وصديق أصدقائي، أي في إختصار، هو أنا كما لا أعرف كيف أكون، وله رغباتي وهواجسي وأخطائي وصداعي وثيابي، لكنّه الآن في الأربعين ولا يعرف

متى أو كيف وصل وكم استغرقه الوصول، ويسأل كأنّه لم يعش يوماً، أيَسَعُ واحدنا أن يواصل التفكيرَ في هذا المشهد المملّ كل هذا الوقت، ولا ينتبه إلى الأمور البسيطة كأن يصبح في الأربعين، ولا يتبدّل شيء. فالأشياء تقيم على حالها، وإذا تكبّد مشقّةَ الإلتفات إلى ما وراء النافذة لأدرك أنّ المارّة يواصلون سيرهم والشتاء يواصل شتاءه على جاري العادة، وليس في العالم خطب وليست النهاية، بالتأكيد، أن يصل الرجل إلى أمر بسيط كالأربعين. فالأقدار كذلك. سوى أنّ الأربعين قدَرٌ آخر لرجل آخر، لا أقصد أنّه أسوأ حالاً أو أفضل حالاً، لكنّه في الحالين يشبه الّذي كُنْتُه من قبل، تعرفه جيّداً وتجهل عنه كلّ شيء. ولكن يحدث أحياناً أن تصادف رجلاً في الأربعين (ولمَ لا؟) أو تذكر أنّك صادفته، ذات يوم، ولم يتبدّل شيء. قضاء وقَدَر ومكتوب كالأشياء الأخرى ولا حيلة لك. ركام من الأعوام في ركام من العظام، ولا يعود الوقت ينقضي. إذ أصبحت تجيد العدّ كالتلاميذ، بعد الأربعين، تصبح الأمور أبسط وأقلّ تعقيداً. واحد وأربعون، إثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون، وهكذا دواليك. . . ثمّ أسِف، عرفته قبل أن يفارق الحياة، كان رجلاً في الأربعين، أو على مشارفها الوشيكة، كان هادئاً ورصيناً كما ينبغي أن يكون، ثمّ تبدّل كلّ شيء. كان صاحبي.

ويوسف لم يكن إسمي

[«قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف
وألقوه في غيابت الجبّ
يلتقطه بعض السيّارة، إنْ كنتم فاعلين»
«قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به،
وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون»]

(سورة يوسف، ١٠/ ١٣)

أوْمأتْ للسرابِ شجيراتٌ هي الظّلال الناحلة، خليلة البئر التي جفَّ ماؤها. بئر الأُوام لا يبترد؛ ليست هي البئرُ بل الحفرةُ لا جدوى منها. جنباتٌ للرَّجْع إذا هَوَتِ الأحجارُ في عُمقها الشاغرِ وإذا دوَّت الأصواتُ لا تنادي أحداً.

أومَأتْ للسراب شجيراتٌ وغربانٌ تَظمأ ولا تَعثَرُ على المياهِ إلاّ تذكاراً وروائح تراب مبتلٌ وماضي الطراوة. كانت خضرة الشجيرات تعتلّ واقفة في نسائم اليَبَاس، ونعيق الغراب يرسب في القَعْر دُكنةً للطينِ والطينُ ليس تراباً وليس ماءً بل الماء الذي ترمَّد بنُذْرة الهواءِ واجتمعَ في القَعْر لا يُحْسِنُ التماوجَ والمَسيل.

أومأتْ للسراب أذرعُ السابلةِ والأفواه التي أبكمها التحريقُ علَّ السراب يسكب بردَه الموهومَ ماءً، أو علَّه يذيب أكوامَ الملحِ الذي تجمَّع فوق الجنباتِ وأيبسَ الجوفَ واعتلَّه. ألم يصادف طائرُ الشوكِ

عوسجةً بالقرب منها وكان حَبُّها مرّاً كمرِّ الوحشة في الأعالي ومرّ الأعواد التي تُنْبِتُ الظهيرةُ ظلالَها المستوحدةَ بين كُثبانْ. وأخبرني طائرُ الشوكِ والقُنفذُ ورَتْلٌ من زواحفِ البرِّ أنَّ البئرَ التي جفَّ ماؤها تَفْسُدُ أنفاسُها، وإذ تَفْسُدُ الأنفاسُ يُصبحُ التنفسُ إحتضاراً، لكنَّ إحتضار البئر لا ينتهي. فلم يشهد الذئبُ، ذئبُ البوادي، ولم تشهد الهامةُ المعمّرةُ بئراً تموتُ إذا جفَّ ماؤها. لا تعود البئر بئراً بل أعمق من الوهدِ وأبعد غوراً من جُحْرِ الخُلد وأشدّ غموضاً ممّا تكتمه السريرةُ إذا اعتلَّت بأشواقٍ وفقدان. وقال طائرُ الشوكِ لم أَعثَرْ على شوكةٍ تضاهي البئرَ الناضبةَ المياه قسوةً في القَلْب. إذا أنهكني التحليقُ دَرَجتُ في الوعر حتى أُصادف عوداً وإذا جَثَمْتُ عليه حَاذَرتُ شعابَه المروَّسةَ ونَقَدْتُ حبَّه المرَّ، فالمرُّ أهون من عطش المسافة، وأرخيت تعبي في غفوة مستطيرة حتى المساء. وقال الطائر وما جاورت بئراً إلّا كان النعاسُ في جفوة منّي إذ تستيقظُ روحُ البئرِ في المَساء وتضطرب. تكون الشجيراتُ نياماً والغربان معلّقة كبلّور أسود فوق أغصانها الهزيلة، فترتفع أنفاسُ الجوفِ، لا تُعْوِلُ أو تَئنّ لكنها تقلّد حداءً كأنَّه يتناهى من البُعد. وربّما سمعتُ إنْ أَحسنتُ الإصغاء مطرقاً، غمغمةَ الطين الراكدِ في القعر، وطيف المياه التي نضبت وصارت هي الجفاف المُقيمْ. وقال طائرُ الشوك: ما الذي يَصّاعد

كالأبخرةِ من الحفرةِ التي كانت بئراً، إن لم يكن مَزَاجُ اللوعةِ والظمأِ الأشدّ؟ وقال: تزعم الهامةُ المعمّرةُ، وهي طيرُ الموتى، أنّ ما يجتمع في الجوفِ الساكنِ بين الجنباتِ إنّما هي الأمنياتُ الدفينة لرجالٍ قصار القامة والعمر، فتظمأ المياه ويشتدّ الظمأ لِذَاتِها حتى تحيلها النجوى رماداً فترسُبُ وما عادت مياهاً ويحسب السابلةُ والغربانُ أنَّ البئرَ نَضَبَ. وما لا يدركه السابلةُ أنّ الأُمنيات الدفينة كمياه الجوف ليست مياهاً بل فكرة المياه.
والراحلون، قصار القامة والأعمار، يجمعون ما تبقّى وقد أحالها الرحيلُ تراباً كمثل ما تستحيل الجسومُ تراباً لكنّه التراب الأخفّ من الطَّلْع، والأخفّ من الهواء، فلا يمازج الطينَ ولا يُسلِمُ بدَدَه لحيلةِ الشمس والفضاء، بل يستكين إلى الجوف رَطْباً وقد تُحيل الفترةُ من الأعوام الماضية إلى غُبارٍ، إلى حباحب، إلى بيت عنكبوت، هي مباهجُ الظلمةِ التي تكتنف كل جوفٍ وزينتُها.
وأوْمَأَتْ للسرابِ يَديْ ليس لأني أصدّق السرابَ، أو لأنّ الذي بي كان عطشاً، بل كان الرغبة في أن أدرك الجفوةَ بين لألاءِ السّراب وظُلمةِ البئر. وحسبتُ أنَّ السرابَ ليس ماءً كاذباً بل الماءُ الذي استبدلته البئرُ بأمنيات الموتى وصار ماضيها البعيد. فلا يصحُّ الماءُ الكاذبُ لابترادٍ وليس في البئر إلّا ترداد الصدى. وما عدتُ أصدّق أنّ في البئر

ماءً بل الظلمة التي تلقّفت جسومَ الذين رَمَت بهم تَصاريفُ القنوطِ أو الحبّ أو الجنون إلى رحابها،حيث يلاقي الطّيف شقيقاً هو الطيفُ أيضاً، وتمازج الأنفاسُ حداءً كأنّه هو البئرُ التي في داخل كلٍّ واحدٍ منّا. لا يغمضُ جفناً إلّا إنتابه الإحساسُ بأنَّه سقط في البئر العميقة. لا يصيبه الدوار إلّا لأنّ البئر ماثل في عينيه العميقتين.

فأوْمأْتُ للسراب وأعلم أنّ ماء السّرابِ كَاذبٌ، وحملت البئرَ التي جفَّ ماؤها في داخلي وكنت كلّما أحببتُ أحداً أقع فيها. ويوسف لم يكن إسمي.

أَيُّنا، يا أيُّها الطيفُ، يَحْيا؟

«فإنّ رؤية الشيء نفسه ما هي مثل رؤيته نفسه
في أمرٍ آخر يكون له كالمرآة»

(ابن عربي: «فصوص الحكم»)

أيّنا، أيُّها الطيف، شقيق غربتك؟ إنّي أبصر مَن يشبهني سائراً بين وحشة الحصاة ويُتمِها، وأُبصرهُ مقيماً في الضوءِ الماصِلِ بين أشجانِ المقيمين هنا دون رَجاء.

الحُفاةُ جعلوا الطريقَ إليكَ متاهاً والحزانى أنفقوا الصلواتَ وما قرَّب الدعاءُ إلينا منكَ إلّا الإشتياق.

رأيْتُني بين يديك ورأيتني منفيّاً عنك ورأيتني بيني وبينك بحرٌ ولَمَسَتْ يدي ثَنيّات ثوبِك. ثمّ رأيتني بعيداً وهالةٌ منك تصْحَبُني ثمَّ رأيتني بعيداً ولا شيءَ منك يصحبني فأدركتُ أنّي في حلم لا صحوةَ منه إلّا الحلم. وقلتُ، أيُّها الطيفُ، أسلُك طريقًا أنارها العابرون بلَهَفِ أبْصارهم وأوْدَعَتْها القِفارُ وحشةَ أسرارها، ومشيتُ وما دنوتُ من شيءٍ إلّا فارقني أسِفاً، ومشيتُ وما خاطبتُ أحداً إلّا أشار عليّ بالمسير حتّى أنهكني المسير فلاقتني ظلالٌ ليس لها شجرٌ ولا تدري بمَ تُورِفُ، لكنّها ظلّلتني بثقلِ الغفوة

إذ أطبقت الغفوةُ على عينيّ فرأيتني بيني وبينك جبلٌ ومنحدرٌ وسهلٌ وشعاب، ورأيتُني بين يديك ومنفيّاً عنك ولَمَسَتْ يَدي ثَنِيّات ثوبك فأدركتُ أنّي في الحلم الذي أسلَمني إلى حلم لا يقظةَ منه وإنّما الحلمُ الذي يليه. وقلتُ، أيُّها الطيف، أسلكُ شعابَ الجبلِ والمُنْحَدَر وإذا لاحَتْ طريقٌ أوْدَعتُها رجائي، ومشيتُ ولم أعثر على الهواءِ في أعلى الجبلِ ولم أعثر على الينبوع في أسفلِ المنحدر بل تراءت لي الوحشةُ في هيئةِ الشوك وترامى الوعرُ كالمفازات لا تحدُّها العينُ أو جناحُ الطير. فأسلمت جسمي للتعبِ يُحسن وفادتي كالبيتِ وليست له جدران وليسَ له سقفٌ وبابٌ ونافذة. وغفوتُ ورأيتُني بين يديك، على مقربةٍ منك ومنفيّاً عنك، ولَمَسَتْ يدي ثنيّات ثوبك وأدْرَكَتْني الطراوةُ أعرف أنَّها ليست في شيءٍ إنّما يَجدها النائمُ واقفةً في الحلمِ الذي أسلمني إلى حلمِ لا صحوةَ منه إلّا إذا تلمَّسَتْ يداك البابَ الذي منه أدخلَك الطيفُ وأضلَّك وقال لا تبحث عنّي لئلا تجدني وما وجدني العابرون إلّا في حلمٍ لا يقظة منه لأنّه ليس حلم النوم بل حلم اليقظة ولا ينهض اليقظانُ من نومٍ ولا ينهض النائمُ من موت. وليس إلّا النسيان.

قلتُ أيّها الطيف، أيُّنا يحيا؟ إنّي أبصرُ مَن يُشبهني في الحلمِ الذي يُبصرني فيه. أراني ضَلَلتُ الطريقَ تُسْلِمُني الشعابُ إلى شعابٍ، وأراهُ ضلَّ

الطريقَ تسلمُه الشعابُ إلى شعابٌ. وما ظننتُه العيشَ كان حلماً أبصرتُه، وما ظنَّه العيشَ كان حلماً أبصَرَه. أبصرناه معاً، الحلمَ الذي ما كنتُ فيه وكانَ عيشي، والحلمَ الذي ما كان فيه وكان عيشه.

وحسبناه معاً، أنّ الآخر منّا يحيا، وأنّ الآخر منّا أضلَّه الطيفُ إذ أدخلَه إلى الحلمِ الذي لا يقظةَ منه إلّا الحلم الذي يليه.

فأيُّنا، أيُّها الطيفُ، شقيقُ غربتك؟

الحفاةُ جعلوا الطريقَ إليك متاهاً والحمّالون أنفقوا الحياةَ سعياً وراء الحلمِ الذي يُفضي بهم إليك.

والأحياءُ، أشقاءٌ لنا، حلموا ذات يوم أنّهم يحييون وصدَّقوا. وما زالوا، أيّها الطيف، يُصدِّقون.

لستَ الآنْ لستَ هنا

«ومثلما يَفْنى تَفْنى الحسراتُ
هلّا نعلمُ يقيناً أنَّ الميتَ كانَ
ـ ذاتَ يومٍ ـ أحداً».

(جو بوسكيه)

ما حِكْمةُ الأشياءِ في أن لا تبرح عينيك؟ رَمَدٌ ربيعيٌّ لا يزولُ إنْ أغمضتهما، يَعْلَقُ في الأجفان، في بواطنها المحمّرة، المجهدة، إن أغمضتهما تُبصر الجانبَ المعتمَ منكَ. الظلمةُ التي في داخلِك تَنْسَكِبُ كمياهِ جوفٍ دكناء.

وما حكمة العينين في أن تبصرا الأخيلة مترامية في المدى الشبحيّ لصباح متراخ، سائلٍ على الجدران والنوافذ؟ عادةُ العينين أن تبصرا كما الأقدامُ أن تسير والقلبُ أن ينبض وعادة اليدين أن ترتبكا وتبحثا عمّا تفعلانه استدراكاً لفراغ الوقتِ، لبطالة الأشياء.

كلُّ الأشياء التي تبصرها تنال منها شيخوخة مبكرة، أمّا الأشياء التي تبصرها وتظلّ فتيةً في عينيك، وفي تمام صبوتها وصباها، فهي الأشياء التي تراها وأنت مَيْت. حين لا تهرم الأشياءُ التي تراها فهذا يعني أنّك ميت وأنّها، الأشياء، تحيا في

الصورة العالقة في عينيك. عينان مغمضتان كأنّ منهما تنسكب الظلمةُ إلى داخلك ومعها الأشياء، ولا سبيل لأن تمحو الأشياءَ دون أن تمحو الظلمةَ ولكن كيف السبيل إلى مَحْوِ الظلمةِ إذا كانت العينان مغمضتين؟

ما حكمةُ أن تبصر إذاً؟ الضوءُ ليس أكثر من مكيدة. حيلةُ الظلام الذي بها يبصر الأشياء على حدة، بمعزل عنه، وهو يكتنف جنباتها ويمتزج بها ويُخالط جسومها الطيفية البائسة. وما حكمة هذا الإصرار العنيد على رؤية ما يجعلك تتألّم، ما يعذّب روحَك إلى آخر ما يطيقُه الألمُ منك، كأنّك تقف على الموج ولا تريد الغرق، كأنّك تمسّ النار وتخشى تحريقها ولشدّة ما تخيفك الهاوية تسقط فيها.

أشياءُ كثيرة لا تدرك الحكمةَ منها وتقعُ فيها كما تقع في الخطيئة وتعلم أنّك هنا ولا مخلّص في الجوار القريب أو الجوار الأبعد. كأن تحبَّ وتصدّق أنّك شُفيتَ من الموتِ، وأنّك شُفيتَ من الفُقدان، ومن البئرِ التي في داخلِك ولشدّة ما تطمئنّ إلى البئر التي في داخلك تعتاد أن تكون وحدك، معهم، في الجوار الذي لهم، بينهم، لكنّك وحدك إذ تغمض عينيك فتنسكب الظلمةُ في جوفك كأنّها دَعةٌ أن تعود الأشياءُ إلى جواهرها البسيطةِ وهي ليست تراباً ولا ماءً ولا هواء. سكينةُ الطين الراكدِ لا

تَقْربه الحياةُ ولو على هيئةِ الطحالب والأشَنات. سكينةُ السكون: دعَةُ الصَمْتِ إذا كان الصمتُ الأعمق، الأبعد غوراً، المحيط، الذي لا آخر لاتساعه. كأن تحبَّ وتصدق أنّك شُفيتَ مما لا شفاء منه: رجاؤك أن تزول الأشياء من تلقائها، وأنت معها، أن تُذيبها الظلمةُ التي، ما أن تغمض عينيك، تنسكب في داخلك وتملأ جوفك بالأطيافِ الرقيقةِ المُرهفةِ لأشياءٍ كانت قبل أن تزول من تلقائِها.

وما حكمةُ أن تحبَّ الأشياءَ التي تزول وليس في الأشياء حكمة إلّا زوالها؟ لكي يشفيك التوهّم من رغبة الشفاء. إذ ليس في أعراضِ ما أنتَ فيه مما يُصدَّق إلّا بالتوهّم. تجعل الابتسامةَ احتمالاً للإجابة وتقلّدها. ترى السابلةَ يسيرون وتجعل من السير احتمالاً (ولا وجهة لك أو مقصداً) وتقلّده. ترى الغبطةَ في عيني ابنتك الجميلتين وتقلّد الغبطةَ بعينيك الكابيتين وتصدّق أنّك شُفيت. ولولا الشفاء الذي صدّقته ما بَلَغتَ أربعينك التافهةَ كنُصبِ كَلْب أو جرادة. وفي الأربعين رجاؤك أن تزول الأشياءُ من تلقائها، ومن دون ألم منك أو انتباه. كأن تودّع، عند العتبة، آخر الزوّار في ساعة متقدّمة من الليل أو تتواعدا على لقاء قريب تحدس، دون سبب، أنّ اللقاء لن يكون، ليس لأنّك لا ترغب أو لأنّ لديك من المشاغل ما يجعله مستحيلاً، بل لأنّك تعلم أنّ

الأشياءَ قد لا تحدث، هكذا دون سبب، ولأنّ الوعدَ باللقاءِ من أوهام الشفاءِ التي صدّقتها حتّى بلغت أربعينك التافهة كنصب كلبٍ أو جرادة، وأنّك الآن في أربعينك التافهة، قد شُفيتَ من هذا الشفاءِ وأصبحت تدرك أنّ الأمور قد لا تحدث. هكذا دون سببٍ أو لأسباب كثيرة، ولا تُبالي إذ تغمض عينيك فتنسكب الظلمةُ في جوفك كسائلٍ من المَعْدَن يَمْنَحكَ الثِقْلَ الذي يجعلك هنا، في الجوارِ القريب أو البعيد، معهم أو بينهم، أنت وحدك، علّك من غير قصد منك أو منهم، إذ تغمض عينيك، تزول كما تزول الأشياء من تلقائها لكي لا تهرم الأشياءُ في عيون الأحياء ولكي لا تمكث على صبوتها في عيون الموتى. بلا ألمٍ. كأنّها تعود إلى جواهرها البسيطة: الحصاة إلى دعة الصمت. الشجرة إلى وحشة الظلال. العراء إلى شجن بسيط. الباب إلى عزلة أكيدة. والكنبة والمشجب والخزانة والسرير إلى فقدانٍ كالهمس يتردّد على مسامع الجدران.

ما حكمةُ أن تفقد الأشياءَ دوماً؟ لأنّ الأشياء تعثر عليك بالمصادفة وتفقدك دون انتباه. كلّها، الأشياء، هنا. وأنت؟

لَسْتَ الآن. لَسْتَ هنا.

لا غايةَ لي، أسيرُ وحَسْب

«ما كان ليس شيئاً. تَذْكارُه أن لا تراه.
أُعبرُ، أيُّها الطيرُ، أُعبرُ وعلّمني كيف يَسَعني العبور».

(فرناندو بسوّا)

ما الذي يقودني إليه؟ كان بيتي. وأسير كالأعمى الذي يتبع ضوءاً ليس أمامه وليس وراءه، لكنّه دُكنةُ أبْصارِه المُطفَأة.

ما الذي يدعوني إلى سيرٍ عجولٍ في السكينةِ المُعتمة لمدينة كنتُ أحسبُ أنّني أعرفُها، وكلّما مشيتُ، عابراً هواءَها الباردَ بيقظتي النحيلة، أدركتُ أنّني الغريبُ بين غرباء، حيث لا نوافذ تُضاءُ، ولا خبزاً أو نبيذاً يدعو الغريبَ إلى أُلفِ الداخل؟

لَمْ أدرك حين تبعتُ نجواه الهاتفة أنَّ هذا خدعة الليل الذي، إذ يرين، يتظاهر بالسوادِ وهدأةِ الرَغَدِ الخلوِ من أي حياة. والليلُ كلُّه مُصطنع. كأنّ غرباء جاؤوا من مكانٍ لا يعرفه أحدٌ وبسطوا ملاءة كالحةً بلا ثقوب فوق العمارات والطرق الملتوية التي تحاذي مضطرب البحر وصخوره وأنفاس النائمين، هانئةً، منتظمةً، رتيبةً كما في المصحّات والمشافي.

لم أدرك ذلك، لكنَّ الفتنة في الليل المتباهي

بسواده قادت خطواتي إلى أبعد مما أستطيع أو أدرك أو أطيق.

ودون أن أنتبه مررتُ بها كما يمرّ طيفٌ بجوار الساهرين وقوفاً على القارعة، فلا ينتبه الساهرون ولا ينتبه الطيفُ، ويقول العجائزُ منهم، إذ يهبُّ نَسَمُ عبورِه، إنَّه ملاكٌ ضالّ. ويواصلون الأحاديث كأنّ هبوط الملاكِ عَرَضٌ ألفوا حدثانه مذ أدركوا أنّ الموتَ وشيكٌ وأنَّ ما يفعلونه في الأثناءِ ليس أكثر من خدعةِ الحياة في أن تتظاهر بأنَّ ما تبقّى منها هو الحياةُ أيضاً.

وكنت أنا نفسي العابرُ، جَعَلتني الظلمةُ طيفاً، وما تبدّل شيءٌ فيَّ سوى أنّي كنت في العشرين وحجارةُ المبنى المتداعي أسنُّ منّي بمثيلاتها العشرين حيثُ لم أولد بعدُ.

كنتُ أعبر من هناك في الطريق التي أحالها الليلُ ليلًا مثله، وكنتُ في الآن معاً، أُقبلُ من خَلْفِ الأجَمَة، لا أعرفُ إذا كانت حجارة تكوّمت هناك بفعل الانهيار أم أنهِ دغلٌ أنْبَته ضَجرُ الترابِ في النهاراتِ المَطيرةِ، ولا أعرفُ إذا كان سوايَ لا يزال خلفَ الأجمة.

كنت أعبرُ، يتراءى الردمُ مقترباً، وكنت مقبلًا يتراءى الطيفُ مقترباً على الطريق التي أحالها الليلُ ليلًا مثله، وكنتُ في الأربعين حين دعاني شيءٌ لا أدركه إلى المسير، وكنت في العشرين بَعْدُ، بلحيتي

النابتةِ وجسمي النحيل وعينيّ المتعبتين وقلبي المُعتم كجوفٍ مغلق بإحكام. ولم ينتبه الساهرون هناكَ على القارعة، وربَّما قال بعض العجائز إذ يهبّ الشَّجَنُ من عبوري الفتيِّ في الجوار، إنّه تذكارُ الموتى لا تراه لكنَّه يخالط الهواءَ الراكدَ فيضطربُ هنيهاتٍ ثُمَّ يرسبُ سويَّةَ الأرض وتكون الدَّعةُ المستعادةُ في خدعةِ الحياةِ التي تسمّيها بقيّةً ورجاءَ مَن ينتظرون على العتبة أن تكون البقيّةُ تُشْبهُ الحياة.

أقْبَلْتُ عليَّ فيما أسيرُ في اتجاهي، جَاوَزْتُني وجَاوَزْتُني والتفتُّ بعينيّ المتعبتين وقلبي المعتم وما التفت بوَهَنِ أربعيني المؤرّقة. ورأيتُني من الخلفِ محنيَّ الظهر قليلاً لا ألتفتُ كأنَّ الطريقَ تأخذني إلى الليلِ الذي صارَت ليلاً مثله فما عادت تُفضي، لكنَّها، في الليلِ، تدعوني إلى المسيرِ في الجوار الذي أرى فيه الأنقاضَ لا تزال، وأراني مُقبلاً من خلفِ الأجَمةِ لا أُبالي بالغريبِ الذي أكونُه ولا أَلتفتُ، لكنّي ألتفتُ بعينيَّ المتعبتين وقلبيَ المعتمِ، وأسمَعُني أقول: «عِم مساءً أيُّها الطيف، عمْ مساءً أيّها الغريبُ الذي صِرْتُه. عمي مساءً أيّتها الأنقاضُ التي ليستْ من حجارةٍ وركام بل الأعوام التي قاسَمَني إيّاها أبي كالخُبزِ وكنتُ في العشرين وكانتِ الأنقاضُ أسنَّ منّي بمثيلاتها العشرين، وأشدّ حكمةٍ ولا تُبالي الأنقاضُ بالغريبِ الذي صِرْتُه. ورأيتُني متربَ الوجهِ، مترمِّدَ اللّحيةِ القليلةِ بالسُترةِ الخاكي

والمرّ المقيمِ في فَمي، طعم نبيذ وتبغ وسقام لا أبرأ منه ويجعلني أحيا بالبقيّة التي هي ما تتظاهر به الحياةُ ويقول العجائز إنّها انتظار غيرُ محسوب، ليس مشوباً بالغبطة الفائقة ولا الشقاء الفائق. انتظارٌ فحسب. الأشياءُ كلُّها ترتضي بأن تكون برفقة ذاتها لا أكثر، ومثلها أرتضي أن أكون برفقة ذاتي. فما كان ليس شيئاً. وما يكون ليس شيأً، سوى أنّي أنهض لأغادر الحلمَ وأقيم في المكان الذي في الحلمُ ولا أتعرَّفه ولا يتعرّفني كالأنقاضِ التي أَنْبَتَها ضجرُ الترابِ شوكاً، ولا أعرف، إذْ أَعبرُ في الجوار، إذا كانت الأنقاضُ أنقاضاً أم أنّها بيتي الذي فيه ما أزال بلحيتي القليلة وعينيّ المتعبتين والمرّ الذي في فمي طعم نبيذ وتبغ وسقام لا يَبْرح.

لستُ أدري ما الذي يقودني إليه؟

ثمّة ما يدعوني، في البعيد، إلى سيرٍ عجول. ولا غاية لي.

أنهضُ ثمَّ أسيرُ وحسب.

أحوالُ التُرابْ

على الكرسيّ. في ثيابِ البَارِحة

حين أدركني النهار، غِبْطَتُه المستعارَة وكان نظيفاً ومغسولاً بالمطرِ والأضواء، كنتُ لا أزالُ هنا. على الكرسيّ، عند زاويةِ الحائط التي لم أغادرها. في ثيابِ البارحة. لحيةٌ نابتة ونَفَسٌ مُبَنَّج وعينان تحدّقان كأنّهما من زجاجٍ معتكرٍ لا تبصران. الظلالُ التي كانت بقربي تلاشَت، فالأشياءُ إذ يُفرغُها الظلامُ من رسومِها المستضاءَةِ تَسْعى خفيفةً كالأخيلةِ المستريبةِ تَعْبرُ مغفلةً على صفحةِ جدارٍ أو وراءَ ستار مُسدَل. كنتُ لا أزال هنا، ساكنًا بلا حراك، باردَ الجبين خاويَ الصدر مسبلَ الأطراف. بَلى، روى المقرّبون أنّني كنتُ ميتاً وحين أدركني النهارُ مَكَثَتْ أضواؤه الحاذقةُ على مقربةٍ من قدميّ، على بُعدِ سنتيمترات قليلة، قبل أن تعثر عليّ. بلى كنت ميتاً. أو في الأقلّ كلُّ موضع منّي كان ميتاً ولم ينتبه أحدٌ إلى نظرتي الكابية المثلّجة، وإلى ساعديَّ المرخيين أسفلَ القَفَص الصدريّ فيما تشتبك أصابعُ الكفّين

مُتصلّبةً. الساقان ممدودتان والحذاءُ ملمَّع على جاري العادة. الآن، لا أذكر شيئاً. وبالطبع زال عنّي الصداعُ ولا أشعرُ بالألم. أبْسَطُ ما يوصفُ به الموتُ أنَّه الحياة بلا ألم. أنّه الحياة بلا حياة. أو الشيء من قبيل ذلك. إنّها مجرّد استعارة أستعين بها الآن على غيبتي لوصفِ ما لا أدركه تماماً. بلى أسمعُ الجلبةَ من حولي. ومع الضوءِ يتدفّقُ سيلٌ مضطربٌ من الصراخ عبر النافذة. أرى الجدار جداراً، الطاولةَ طاولةً، وأراني مثلها كما أنا. المشهدُ إيّاه لا يتبدَّل. وما يقلقني في كل هذا: ثباتُ البرودةِ في أوصالي. لا أشعرُ بالبرد، لا أقصد ذلك، فالبرودةُ هي الحال التي أُقيم فيها لا أبرح! ما عدا ذلك لا شيء يدعوني إلى الخوف أو الرهبة. اعتدت الأشياء كما هي وأدركت أنّ الأمر لا يستحقّ عناءَ الإشفاق والأسى. بلى كنت ميتاً منذ البداية، وروى المقرّبون أنّ ما حدث كان جميلاً غير مؤثر ولا يستدعي الإنشاد المطوّل. لم أغادرِ أحداً، إذ ينبغي أن أقول أن لا أحدَ لي. كنت هنا منفرداً ومكثتُ ما شئتُ ثمَّ رحلت. أقصد بمفردي كنت هنا ومكثتُ ما شئت ثمّ أدركني النهارُ وكنت ميتاً كما روى المقرّبون، جميلاً كالموتى الذين لا نراهم. فقط ٦٥ كيلوغراماً، أقل أو أكثر، ما عدت أدري، من البطالةِ المكدّسةِ، من الألم، من الضَجَر الثقيل.

ثمّ أيقظني ملاكٌ. كنت ميتاً هنا وأيقظني في

منتصف كلّ شيء. رَسَم الطريقَ وقال: هذه طريق. وهذه السُبُل كلّها. هوذا الصفصافُ وظلُّه الشاكي. هي ذي المياه. هي ذي البيوت إذ تُضاءُ بعيدةً، مغلقةً أبوابها، لكنّها هناك.

وقال صدّق. إن صدَّقت تكون البيوت هناك.

وقال إفرح. وفرحتُ.

أيقظني ومسح بالدفءِ على عينيَّ فأبصرتُ.

أيقظني وأقام الميتَ فيَّ.

وشُفيتُ من الخوفِ إذ عانقني، ومن البُكم إذ لَثَم شفتيَّ، ومن الكراهة إذ جعلني الطّيفَ الأَخَفَّ من فراشة.

ثم دلّني حين قال: فاقدُ البَصَر مَنْ لم يُبصرني بَعْدُ. والميتُ مَن لم تمسّه يداي. وصدَّقت أنّ الميتَ يحيا إذا قال الملاك.

في آخر العمر جاء الملاك وأيقظني. ثمَّ أماتني. وحين أدركني النهارُ، كنت لا أزال هنا. على الكرسيّ. جَسَدٌ مهدَّم. وعينان تبصران في الظلام.

تَمَارينُ مُرْتَجلة لغِبْطةِ الأَحَدْ

وهذا أَحَدٌ أيضاً.

أَقصدُ اليومَ الذي يَلي السبتَ، إن فَطنْتُم، وهذا يلي الجمعةَ إذا دَرَجت أيّامُ الأسبوعِ على التصرُّم لا الثّبات.

إنّه الأحد إيّاه الذي جعله الله لبطالة هانئة بين الأهل والمشاغل الأليفة وأوّلها التدخين والتجوال بين الغرف وتقليب صفحات الكتب المملّة والابتسام الدائم لمَن يأتي ومَن يغادر وانتظار أي طارئ بالرويّة والأعصاب التي ينهكها تصنُّع الاسترخاء.

أَحَدٌ جميلٌ كما ينبغي أن تكون عليه الآحادُ الطويلةُ التي تُفتتح صبيحتها بالأجراسِ تُقرع من بعيدٍ وهدأةِ الشوارع والسأم الذي يسيل على الجدران كالأصفر الذي تمقتُ بلاهته. ولا تجد ما تفعله إلاّ أن تخترع له معنى ودلالة لكي تستكمل تمارين الآحادِ الطويلة وتقول إنّ الأصفر هو اللون المعتَّق من الأسود الطاغي، وإنّه خدعةَ السأم إذ تراه العينُ

وتجد أنّه اللونُ الأبله بين الألوان، وأنّ نبرته أقرب إلى هذا السكون المسطّح في الأشياء من حولك. ثمّ تقول إنّك أخطأتَ لأمر تجهله، وما عليك إلّا أن تستعيد التمرين لعلّك تهتدي إلى صوابٍ في منطق اللون، ولكنَّ الكسلَ يغلبُك ويستبدُّ بك الرعبُ من هذا الوقت الهائل الذي يتّسع أمامك كالهاويةِ ولا تُحسنُ له تدبيراً أو وجهة لتصرفه عنك. فهذا أحَدٌ أيضاً. أحدٌ جميل. ليس الذي غالبك الوقتَ في نهاية الأسبوع المنصرم أو الذي سبقه، بل الآخر، ذاك الذي يُصادف اليوم بالذات، وما كنت تعلم، على الرغم من فضائل فُسحة السبتِ في التأمّل والتدخين، السبت الذي يلي الجمعة، وليس ذاك الذي تلا الجمعة المنصرمة بل أمس الأول وقضيت دَهْرَه في التأمّل والتدخين. ليس لأنّ الضجَر ينالُ منك في كل وقت، بل لأنّ الوقتَ ينال منك في كل وقت، وتكرارُ الوقت مملٌّ كالمشهد الذي تراه الآن مستطيلاً يترامى إلى ما بعد الناصيةِ والمباني القبيحة هناك.

أحَدٌ جميل. عطلةُ السنونوات تراها لا تدري ماذا تفعل سوى الدوران الأبله في فضاء أصمّ كالجدارِ وباهتٍ كأضواء الأروقة في المصحّات.

أَحَدُ الحمّالين في الموانيء والساحات. وأَحَدُ سائقي سيارات الأُجرة، وأَحَدُ الموظّفين ذوي الياقات. وأَحَدُ الأكياس السوداء مرميةً، متراكمةً

على الأرصفةِ قُبالةَ المباني المُغلقةِ على غِبْطةٍ غامضة. تسمعُ هديرَ المَصْعد، صريرَ الأبوابِ الحديدية التي تحمي خِواء الداخل، تكّةَ المفاتيح، وجلبةً مكتومة تناهت إليك عبر السقوف والجدران. فتحدس أنّ أحياء لا يزالون هناك بجوارك، لا تعرفهم، لكنّهم هناك يتدبّرون أوقات الآحاد السعيدة بالراحة والشجار الذي لا يخلو من مودّة وأحياناً الصراخ الذي تكتمه الحناجرُ تحرّجاً طيلة أيّام الأسبوع ثمّ تطلقه في الآحاد لأنّ الآحادَ أمداءٌ شاسعة، شاغرةٌ لا يقطن أرجاءها إلاّ مَن أنهكَت جسومَهم مسلِكُ السعي بين أيّام الأسبوعِ، ولهم الآحادُ ملاذاتٌ وَهْم تُستعادُ بانتظام.

وهذا أَحَدٌ أيضاً. لا أقصد واحداً بعينه. بل الوافد عرضاً بلا اتفاق أو مواضعة. المارُّ بمحضِ المصادفة بالمكان الذي تكون فيه. الغريب الذي يرى أنّك أنت الغريب وترى أنّه هو الغريب ولا يبدّل خلاف النظرتين شيئاً من غربة كلٍّ منكما. ومع ذلك لا يجعل الأمر منكما غريبين في مكان واحد. أَحَدٌ لا تكون فيه إلاّ ظلاًّ لما تكونه في أيّام الأسبوع اخرى وإذا كنت ظلاًّ فيها، فتخيّل كم يكون امّحاؤك مضاعفاً. ولكنه يومٌ مفيد. محيِّر. خاتمةُ الأسبوع وبدايته. يتّصل ليقطع ما سبقه. ويتّصل ليستمر ما بعده. وما سبقه يليه بالتعاقب إيّاه. أَحَدٌ ملغَز لهواة الكلمات المتقاطعة والنزهات، أيّام الصحو، على

ضفاف الأنهر والبرك والبقع الخضراء. ثمّ أنّه علبةٌ للصمت والأصداء. فلن يتّسع الوقت لديك في أوقات أخرى لهذا القدر من التدخين والإصغاء المفتون للمياه التي تقطر بعصبية بالغة من الحنفية المعطّلة. وفي أوقات أخرى لن تعرف دعةَ أن يكون الوقت خالياً من أي شيء، حتّى أنت، خالياً منك. لأنّ الوقت في الآحاد الطويلة لا يعود هو الوقت، بل الأَبَدُ المتَّصلُ لساعات ودقائق وثوان تتكرر لا فاصل بينها. ولك أن تقيس الوقتَ بالخطوات. طول الرواق مضروباً بعدد المرّات التي تجتازه فيها جيئةً وذهاباً. وتمارين أخرى كثيرة يتّسع لها، فَلَكَ المتسع فيه، كأن تجلس على الكَنَبةِ وتسند رأسك إلى الخَلْف وتبدأ تمارين التوقُّف عن التنفّس. وكلّما طال احتمالُك للإختناق، لعشرِ ثوانٍ أو عشرينَ أو ثلاثينَ أو أكثر، وكلَّما أحسست بأوجاع الصدر مضاعفةً أكثر، غَلَبَتْكَ الدَعةُ إذ تُدرك أنّها الوسيلةُ الوحيدةُ التي قد تجعلك قادراً على الخروج من رتابة الوقت، في الآحاد الطويلة، دون أن تقفز من مكانٍ مرتفع أو تنتقي حبلاً متيناً وسقفاً وخطّافاً مثبتاً في سقف. أو أن تقول، كما في البداية، وهذا أَحَدٌ أيضاً.

ويليه الإثنين.

في فَضائِلِ الصُداعِ والفُنونْ الجَمِيلة

في عُلبةِ الأصداءِ التي هي رأسي جِفْنةٌ من الأفكار، وحين أُفكِّر يعلو الصَخَبُ، كأنَّ كرةً تترجَّح بين الجَنباتْ، مِنْ مؤخِّرِ الرأسِ إلى الجَبين، إلى الصُدْغين. فأقولُ إنَّ المُوجِعَ في الأفكارِ يُسمَّى صداعاً. فأحملُ صُداعي وأسيرُ به، وأحياناً تلذّ لي صحبتُه فأسألُ مبتهلاً ألّا يزول. وأحياناً أُخرى أُسمّي الصداعَ أفكاراً، فأقولُ إنَّ الموجعَ في الصُداع يُسمَّى أفكاراً سوداء، أو في الأقلّ، أفكاراً يطردها الأسوياءُ من أقراني بالمُسكِّنات، ومن هنا حَسناتُ الأسبيرين والغليفانون والمشتقّات التي لا تُحصى من أنواعِ الأقراص الصغيرة. ولكن أيضاً يحدثُ لي أحياناً أنَ تراودني الأفكارُ المفيدةُ، الزُهريةُ المغسولةُ بماءِ الورد، وعندئذٍ لا يسعني أن أقول إنّها الصداع إيّاه، فأحسب أنّه أَخَلَّ بي لهنيهاتٍ ريثما يعود، وأمكثُ في غيابِهِ منتظراً، متوسّلاً، راجياً ألّا يُطيل الغياب، وأسمّي هذا: الإنتظار.

إذا كان كلُّ هذا الذي يتردّد في غُلبة الأصداءِ التي هي رأسي، صداعاً، فمتى إذاً أفكّر؟ أو إذا جاز لي القول معتذراً: متى أستغرقُ في تفكيرٍ متواصل مُركَّز في الأمور الأُخرى، والحياةُ لها شؤون وفنون لا تُحصى ولا تُعدُّ، وأقصد بالأمور الأخرى: تعاقبُ الفصول والليل والنهار، وأحوال الناس والمدن، والأقدار، وتصاريف العيش كما يفعل الآخرون، ومقامات الحبّ والكراهية واللامبالاة ونظائرها من اللقاء والبعاد والسلوّ، والمشاغل التي أغوتني لماماً بالانتباه، والمثابرة على التشبُّثِ بحسنات الأوكسيجين وفضائل الماء ورَذْلِ ثاني أوكسيد الكربون والسموم الأخرى.

ولستُ أسأل على الرغم من حُسن شارةِ الاستفهام، وأُدركُ، ما أتاح لي الصداعُ إدراكاً، أنَّ مثل هذه الأمور ليست في وارد مشاغلكم، فاليقينُ لدى الأسوياء أنَّ الصداعَ شيءٌ والأفكار شيءٌ آخر وأنَّ الخلطَ بين الشيئين تشوُّش قد يردُّه البعضُ من ذوي الدراية والاختصاص، إلى عَرَضٍ مرضيّ، أو إلى انحرافٍ في المزاج، أو خفّةٍ في الرأس وغلبة الأبخرة الصاعدة من المعدة والأمعاء على صفاء الذهن والسريرة. وأنّ الصداعَ باطلُ الأباطيل.

ليكن ما كان أو يكون. فأمرّن رأسي على الأفكار المفيدة وأروض نفسي عليها. الورودُ جميلةٌ

والسماءُ زرقاءُ والهواءُ منعشٌ والناسُ في حُبور كأنَّ الناس فراشات لخفَّةٍ في الوجود ماثلةٍ للبصائر قاطبةً. لا أراها، ربما بسبب الصداع، لكنّها ههنا بلا ريب وإن كنت لا أراها: الورود الجميلة والسماء الزرقاء والهواء... الخ. وفي تمرين آخر يفوق الأوَّلَ مشقّةً ورعباً رحتُ أصفُ، على ورقٍ أصْفَر مُسطَّر، نعمةَ أن أكونَ على قيد الحياة ومباهجِها كأنْ يحبّ المرءُ، وذاك أنا أو أنت أو هو، والعناية بالنباتات الرائعة على إفريزِ الشُرفة وأن يَقبَل بدعوى الواقعية والتبصُّر والاتزان، وهي كثيرة، كالموت والولادة والحروب والحوادث المتفرّقة في الصحف، وأن يثابر على الابتسام ومشاهدة التلفزيون ومزاولة الوظيفة. والحقّ أنّه الوصف الذي مرَّنتُ عليه لُغَتي، ليس واقعياً ولا أزعم أنّه من صميم الحياة (الحياة التي لي بالطبع) ولكنّي إذ أدركتُ ما أوقعني به التخيُّل من أخطاءٍ املائيةٍ ونحوية رجوتُ «محيطَ المحيط» أن يكون عوني وعَيْلَتي وعَثَرتُ فيه على النُزهات والنباتات والموتِ والحياةِ والصنوفِ الأخرى التي لم أرها وما انتبهتُ إليها.

لكنَّ هذا مما لا يعيره الأسوياءُ بالاً. فمن شأنِ الصداعِ أن يُفسدَ البهجةَ في كلّ شيء. ويذهبُ بعضهُم، وهذ البعضُ من أهل الدراية والاختبار، أنَّ الأفكارَ تتفتَّح مثل البراعم وما على الراغب إلّا أن

يجعل رأسه مزهرية. وعندئذٍ يكتملُ الهناءُ جسداً وروحاً. وإلّا ما جدوى أن تحمل رأساً مثل هذا كأنّه القُربة الفارغة في أيّام قحطٍ وبوار؟ الحقُّ أنّ في تمرين ثالثٍ أقعدني منهوكَ الحَيْلِ، ودِدْتُ أن أذكر كلَّ هذا، واستَعَنْتُ بعددٍ من أشرطة القيديو وبكتب ابنتي المدرسيّة، وبثوب زوجتي المشجَّر المُشرق الألوان، لكنّ الذاكرة لم تسعفني. فأيقنتُ أنَّ الصداعَ ليس عَرَضاً كما ظَنَنْتُ ولا بدَّ أن يكون شيئاً كوشمِ الولادةِ أو الطباع المركوزة في موضعٍ من جسمي الفاني، أو ربّما كان ما لَقِنْتُه على مقاعد الدراسة ومقاعد الرصيف ومقاعد الحافلات وغيرها من أماكن الجلوس المطوَّل والاستغراق في التفكير والسؤال عمّا إذا كان الصداعُ هو الفكرةُ التي تجعلني بائساً وتعساً على هذا النحو أم أنّها الفكرة التي جعلت الصداعَ ممكناً وأدخلته في رأسي البائسَ بعد أن أفسحت له مكاناً إلى جانبِ نظائر له في الفنون الجميلة: على غرار النَسيب، والهجاء والمديح والرثاء والفخر وأدب السيرة وأدب الرحلات وأدب الصحف والصحائف، وأدب الضجيج الذي يولّد صداعاً من نوع آخر.

لقد حاولتُ وأخفقتُ وما زلت مقيماً على الحيرة والحصر، وفي الأخيرين ما يُضاعف الشكوى من الصداعِ الذي بات الآن في عدادِ الفنون الجميلة.

كَتَبَ الشاعرُ قصيدةً جميلة عن الصُداع.

كتبَ الروائيُّ أنّ بطلَ قصته الذي أحبَّ امرأةً لم تبادله الحبَّ، والذي قتل رجلاً بالمصادفة وأودع السجنَ ثمَّ أُفرجَ عنه وأصبح موظفاً وزوجاً صالحاً قبل أن تصدمه سيّارةُ أجرةٍ ويلقى حتفه، كتب الروائيُّ إذاً، أنَّ بطل قصته كان يقتله الصداعُ مراراً كلَّ يوم.

وكَتَبَت الصحفُ في زاويةِ الحوادثِ المتفرّقة أنَّ رجلاً كان يعاني من الصداع المُزمِن، وبعدَ علاجٍ بالأقراصِ والإبر، رمى بنفسه من الطبقة الثالثة ولكي لا يُتَّهم أَحدٌ بفعلته ترك رسالة يقول فيها: إنّ ما دفعه إلى الانتحار ليس الصداع الذي أنهك رأسَه، بل الفكرة التي أدْخَلَت الصداعَ إلى رأسِه ولَمْ يُدرك إلى اللحظة ما هي.

كَتَب لي صديقٌ من عاصمة بعيدة: كلُّ الأشياء هنا تدعو إلى الراحة والاسترخاء وبهجة العيش. لكنّ الصداع يدفعني إلى الجنون.

الجدارُ الذي أمامي، أحسب أنّه وحده أدرك الفكرةَ التي تجعلُ الصداعَ ممكناً. سأَمْنَحُه رأسي بقوّةٍ لبعضِ الوقت.

لكنَّه شأنٌ آخَر أَنْ تَعيش

[«التّعب المحض، الذي لا علّة له،
الذي يفجأ كما هديّة أو طاعون:
من طريقه أؤوب إلى أناي، أتعرّفني «أنا».
ما أن يتلاشى أعود جماداً لا حياةَ فيه»]

(سيوران)

شأنٌ آخر أن تحشد في رأسك كلَّ مساء الرغبات والدوافعَ والأسبابَ، مهما كانت صغيرة وتافهة، التي تجعلك قادراً على النوم بشجاعة لتنهض في الصباح التالي بشجاعة مماثلة. أقصد: في الدقائق القليلة التي تسبق النومَ أو الأرَقَ، عندما تقول، وأنت مدرك فعلتك: إنّ لديك من تحبّهم أوّلاً، الوجه الذي يبتسم لك ما أن تفتح عينيك واليد التي تمسح جبينك والقبلة على الخد أو الجبين. ثمّ لديك ما تفعله، لا بل الكثير ممّا ينبغي أن تفعله، كأن تنهض مبتسماً وتغسل أسنانك وتستحمّ ثمّ تشرب القهوة وأنت تقاوم الرغبة القاتلة في التدخين، ثمّ ترتدي ثيابَكَ وقبل أن تغادر ترفع الستار وتلقي نظرة إلى الخارج وتطمئن: كلُّ شيء يدعوك إلى مزاولة عيشٍ عاديّ لا يتطلّب منك أيّ جهد، ولا بدَّ أنّك تستطيع إذا كان الموظفون والأجراء والباعة والبطّالون وربّات البيوت

والخادمات والسعاة يستطيعون، فلماذا لا تستطيع أنت، ليس في الأمر بطولة أو شاهيّة للعيش ممّا يفوق العادة. كلُّ الأشياء في طاقتك واحتمالك، والأسود الذي تراه ليس خَطْباً في الدنيا بل الخطبُ في عينيك. فالأمور تجري كما تجري المياه إلى المسارب الجوفيّة، أو كما يعبر السابلةُ بقرب تلك الشجرة أو بجوار ذلك الحانوت. تَعتادُ الشيءَ وتمرُّ به كأنَّه ليس هنا. وإن إستوقفك فضوليٌّ وأمسكَ بكتفيك وثبّتهما وأشار لما تنبّهت إليه. فالشيءُ المعتادُ هو الشيء الذي تمرّ به ساهماً ولا يضيره أن تغفله ولا تراه لأنّه المعدوم الهَمَل المتروكُ لإنتباهه هو، الموكولُ لغفلةٍ هي الوحشةُ التي فيه وليست في الآخرين الذين يعبرون بالجوار ولا يلتفتون، فطباعُ العابرين أقربُ إلى السهوِ المسترسلِ، وليست بطولة أن تكون، أو يكون الشيءُ، هنا وليست بطولة أن لا ينتبه العابرون.

وشأنٌ آخر أن تجمعَ في إرادتك وأطرافك هذه القدرةَ الهائلة التي تمكّن أيَّ فانٍ من الأسوياء من مغادرة المكان الذي بَذَل فيه جهداً لتدبّر ذريعةٍ للنوم وذريعة للنهوض، ليس لأنّ الذرائع قليلة فمن شأن أيِّ تلميذ في إبتدائية تجارية أن يصفَ لك مَحاسِنَ الهواءِ الطلقِ وفتنةَ الربيع الذي حلَّ أمس الأوّل وفضائِلَ العمل والبناء ونعمةَ الأهل والأصدقاء، ناهيكَ عن محفوظات مطوّلة في البذل والكفاح

وإيثار الفضائل . . . إلخ، من شأن أي تلميذ إذاً أن يبتكر الذرائع التي لا تجدها ولا تخطر لك ببال. وعلى الرغم من ذلك تبذل جهداً إضافياً لإقناع نفسك بضرورة أن تكون بين الأسوياء من الفانين، وليست بطولة أن تكون كالأقران من الزملاء والجيران والأقارب والبُعَداء، فما تراه ليس صحيحاً بالضرورة، وإن خالجَك الشكُّ، وما أقنعت نفسك به بَعْدَ جُهد ليس الحقيقة كلّها. فشأنٌ آخر أن تفكّر، وأنت الكائن المفكّر بامتياز، فيما العيش هو الشأن الآخر الذي لا يدعوك إلى التفكير. وقصارى قول العارفين إنَّ التفكير مفسدةٌ للقلبِ والنفسِ والأعصاب. وليس بطولة أن تفكّر، بأيّة حال، فأيّ جبل انتقل من مكانه مذ جَعَلتَ تفكّر، وما الذي تبدّل في إضطرارك كلَّ مساء إلى ابتكار ذريعة للنوم وذريعة للنهوض، تعلم جيّداً أنّ بطلان الأشياء لا يزيلها وأنّ بطلانك لا يزيلك وأنّ الحياة لا تحييك.

فشأنٌ آخر أن تنهض كلّ صباح (وهذه من شؤون الدنيا)، ولكن ماذا تفعل؟ وتقول، وقولك محض إفتراض، إنّها لبهجة حقّاً أن تكون هنا في هذا الصباح المشرق، وإذا كان الصباح غائماً، إنّها لبهجة أيضاً أن تكون في هذا الصباح الغائم، وإذا كان ممطراً أو عاصفاً أو مجرّد صباح عاديّ، صباح الباعة والموظفين ورجال الدرك والصيانة، إنّها

لبهجةٌ حقّاً، وبالفعل لا أَحَد يحلُّ في محلّك لكي يرى الأمور في صورة أخرى، ولا أَحَد أنت لكي يدرك أنّها مجرّد طريقة لكي تقدر أن تنام ثمّ تنهض ثمّ تنام ثمّ تنهض، وليست بطولة مزاولة مثل هذه التمارين وليس فيها ما يفوق العادة، ولست تخوض حرباً بها ولست تنشد مستقبلاً كالذي تقوله الأغنيات والأناشيد، لكنّه شأنٌ آخر أن ترغب كلَّ الرغبة في أن تجد سبباً وما أن تعثر عليه حتّى ترغب كلّ الرغبة في أن يكون خاطئاً. وذات يوم، أقصد ذات يوم عاديّ من الأيّام المقبلة، ستدرك أنّ الأسبابَ كلّها واضحة ومقنعة وموجبة ولا عيب فيها، لكنّه شأنٌ آخر أن تكون سبباً للعيش، أقصد العاديَّ، المتواصلَ، الهائلَ الذي أَنْهَكَ جسْمَكَ.

كُنْتُ جِدَاراً

بلى سَمعتُ جلبةَ إنهيارٍ، في الصباح الباكر، ولكنّي حسبتُ أنّ الجدران، على جاري عادة الجدران، تَرُوضُ نَفْسَها على التداعي، بلا سبب، فقط لأنّ من طَبْعِ الجدران الوقوف ثمّ التداعي ثمّ الوقوف، كأنّ الغاية من كلّ شيء تمامُ قَدَره ولا بقاء للفانين أمثالنا والجدران. سمعتُ الجلبةَ وأصغيتُ لوقتٍ غير قصير بَعْد أن هَدَأَتْ، لم أشعر بآلام من أي نوع، فكيفَ أنتبه؟ واصلتُ ما كنت فيه من إنهماكٍ بحساب الوقت والجلوس على الكنبة أُمرِّن عينيَّ على أن تنظرا دون أن تريا شيئاً، بعد التحقّق، بالتلمّس أنَّ الأشياء ما زالت من حولي، وأمرِّن يديَّ على خَدَرِ البطالة، وجِسمي على إسترخاءٍ خلوٍ من أي خاطرة. لم أنتبه، لشدَّةِ إستغراقي في السعي وراء نقطةٍ نقّالة في الجِدار المقابل، ثمَّ أدركتُ أنّه العنكبوت الذي يُشبه النقطةَ ذات القوائم، لكنّه ليس النقطة، يُغادر الزّاوية العليا وينحدر متشبّثاً بخيوطه

الوهميّة، ناسجاً المزيد منها في ترجُّحٍ منتظم كأنّه رقّاص ساعة. لم أنتبه. الجدار قُبالتي ما زال واقفاً، وحسبت أنَّه، لا بدَّ، جدارٌ آخر، يتداعى لعلّة فيه، أو لعلَّةٍ بي، لستُ أدري. تبدأُ الأعراض على هيئة شقوقٍ وفسوخٍ سطحية ومع الوقت تُصبح أعمق فأعمق، حتى تتخذ شكلَ الفجوات الطوليّةِ، وتَفِتُّ قشرةُ الإسمنت أو الكِلْس، يَفتُّ الحَجَرُ، ثمَّ يسقطُ حجرٌ من هنا، ويَسقط حجرٌ من هناك، ثمَّ تأتي كلابٌ شاردة، ومتشرّدون وأُجَراء، لقضاءِ حاجة أو حاجتين في سَتْره، ثُمَّ يأتي محازبون يطلونه بالشعارات والأخطاء الإملائية، ثمّ يأتي متعبون ويقيلون في ظلّه، ثمّ يأتي شتاء ثمّ آخر ثمّ آخر، فيبتلُّ ويجفُّ، ويبتلُّ ويجف حتى تَيْبَس أوصالُه، أو تأتي رشقاتُ البنادق الآلية، ورذاذُ الشظايا وإرتجاجات الدويّ، يتصدّع تنفلق قشرتُه الواهنةُ من الصُداع، ويفتّ بعضُها وبعضها يَعْلَق ويهتزُّ على هدي النسيماتِ كأوراق شَجَرٍ، كأوراق شجرٍ يابسة، كأوراق شجر يابسة مُتَرمِّدة وحائلةِ اللون أشبه ببقعةِ غبار جَمُدَت في رقاقةٍ ولن تلبث أن تتناثر في كل صوب وناحية. لم أنتبه. حسبتُ أنّه، لا بدّ، جدار آخر. ذلك الذي، لفرط ما صار مسنّاً، لانت حجارته وكساها الخَزُّ القاتمُ وصارت زَلِقةً دبقةً يأنف الكلبُ الشارد أن يتشمَّمها، وإن أرغمته الظروف قضى حاجته عليها مسرعاً متقذّراً، كأنّه في سرّه

يسأل، لماذا لا تهرع لجان البلديات أو فرقُ الصحةِ العامة لتدفن جثة هذا الحائط أو ترمّمه كمثل سور المبنى البلديّ والأسوار الأخرى التي تزنّر المنازل الجميلة المضاءة. قلت لم أنتبه... وما يعنيني لو يسقط ألفُ جدارٍ في الدقيقة الواحدة.

وما يعني الجدار لو سقط عشرون ألفاً، أقصد مثلي ومثل آخرين، لم ينتبهوا، وحسبوا أن، لا بدّ، هي الجدران الأخرى... إلخ.

لم أنتبه. وحين إستيقظت كنت مبعثراً. على حافة القناة بعضي. وعلى سيّارة جديدة. ونثارٌ في حلم إبنتي تنشّقنه فأتعبها. وبعضي الآخر على قارعة الطريق. ليس كلّي بل البعض من أبعاضي الذي تداركه عمّال النفيّات والأجهزة الأخرى.

إستيقظتُ وما وَجَدْتُني. لم أنتبه في البداية ولكنني فيما بعد أدركْتُ أنَّ التبعثرَ هناءةٌ والفضلات.

وأدركتُ... أنّ في الإدراك حظّاً للنباهةِ.

لكنّني، أعتذر، كنت جداراً.

أَحْوالُ التُّراب

«... فبُعدٌ ووجدٌ وإشتياقٌ ورَجْفَةٌ
فلا أنتِ تُدنيني، ولا أنا أقربُ

ولي ألفُ وجهٍ قد عَرَفتُ طريقَه
ولكِنْ بلا قَلبٍ إلى أين أذْهَبَ؟»

(مجنون بني عامر)

طرفٌ من خيطٍ، أو ربَّما رجاؤه الحائلُ، يُمسك بي على الحافّةِ بين أن أهوي ثقيلاً أو أمكثَ، هنا، على الحافّةِ ورجائي أن أهوي ثقيلاً إلى خفّةٍ ما أَجْهَل. على الحافَّةِ يُقيم الرجاءُ وأقيمُ معه إذ تَخَفَّف جسمي مِمّا يُرهقُ سعيَه كأحسن ما تكونُ العافيةُ، لا التنفُّس ولا شاهية الطعامِ أو الماء ولا الملذّاتِ التي أَوْهَمَتْهُ، قَبلَ أن يُدركَ الحافّةَ، أنّه يحيا كما تحيا الأَشنَاتُ بروحٍ حَجريّةٍ وحواسّ مالحةٍ كمثلِ الصخرة التي تكسوها.

كنت ميتاً، وميتاً لا أزال، فما الذي أيقظ في حفنةِ المواتِ، وهي جسمي، مَشقّةَ أن يَنهضَ قلبُه الصامتُ وروحُه التي اعتزلت في مشاتيها البعيدة. كنت ميتاً، وجاءت يدٌ ومسحت جلدي فَسَرَتْ لمستُها هِبةَ الحياةِ وهبةَ الألمِ الذي ظننتُ ما عاد يُدركني مُذ كنتُ ميتاً ولا شفاءَ. وكنتُ غائباً، لست هنا، ولست هناك، ولست بينهما، فالبَيْنُ مكانٌ

كالغَفْلةِ والسهوِ والعُزلاتِ، كنتُ غائباً وحسبْ، ثُمَّ أدرَكتْني عينان ، لستُ أدري الآن، في الحلم كان أم في اليقظة، ودلَّت على الهباءِ الذي كنتُ مقيماً في هبائه، فانقشعَ غيابي، ولَمَسَتْني باليدين، وَوَجَدتْني: هذا وجه لأنّها تراه، وهذا قلب لأنّه أحبَّها، وهذه روح لأنّها تقيم في أَلم إنتظارها، وهذا جسم لأنّه من أجلها ينهض في الصباح، ولا ينام لكي لا يخطىء موعد الصباح، فالصباحُ، كالأشياء الأخرى، صار المكان لا الوقت، لأنّ الوقت ينقضي ولا ينقضي المكان، والصباح مكانها، والصباح مكاني الذي أعادتني إليه وكنت غائباً، لست هنا ولست هناك ولست بينهما، لأنّ البَيْنَ مكانٌ هو الآخر كالموتِ الذي طالما أماتني ولا شفاء.

لمسةُ إصبع واحدة، أو رجاؤها الذي يُدحرج الصخرةَ خفيفةً كالفراشة، مدوَّرةً شفيفة كقُربان، مشعّةً كومضٍ يشطر السوادَ نصفين، لها كسرةٌ من الليل المؤرّق، ولي كسرة، وإذ نجمع الكسور يزول التأرُّقُ ويلتئم ليلٌ لنا مضاء برقراق عينيها، منوّرٌ به وبالضحكات خفيضة كالإسرار بالغبطة، وليست الغبطة حالاً ، بل المكان الذي أعادتني إليه وأصبح لي الوجه الذي تراه والكلام الذي تسمعه واليوم الذي تكون فيه، والهواء الذي يصحبها رافلاً متقطّراً من فمها، ومن حركة يديها، ومن بَذْخِ جسمها،

ومن الإنتظار الذي تَفِدُ عليَّ منه، فالإنتظار ليس وقتاً بل المكان الذي أقيم فيه. إنتظارُها. ولا ينقضي ولا يزول. حالُ من أقام على الحافّة، لا يهوي ولكنْ رجاءُ الرجاءِ أن يهوي ثقيلاً إلى خِفَّة ما يجهل. وانتظارُها، ما أجهل وما أعلم وما تصبو إليه المداركُ جميعاً. علامةٌ، ربّما كانت بقية سراب، في أفق يبتعد، كالطريق في أوّلها وعذاب أن تدرك أنّ أقصى ما تراه طرفاً هو أوّلها حين تكون هنا وأقصى ما تراه طرفاً منها هو أوّلها حين تكون هناك وأقصى ما تراه طرفاً منها هو أوّلها أيضاً. وتسيرُ. لأنّ ما يستغرقه المَسيرُ ليس وقتاً، بل المكان الذي هو انتظارها. ولا تكون لا عند نقطة البداية ولا عند حدّ الختام، ولا بينهما. تُدرك أنَّ السير إليها حالٌ، كمثلِ الغبطة، كمثل الحزنِ، ولا شفاءَ إذا كان الحالُ مقيماً على الحافَّة وجسمُك المجرَّدُ من لمستها، وجسمُك المغيَّبُ من غفلتها عنك، يستحيل حفنةَ حَطَبٍ، ثقيلاً كمن غَرِقَت روحَه في مياهِ بئر عميقة، وماؤها ليس ماءً بل أَسَنُ اليومِ الذي من دونها، طينُ الطينِ، وفَضَلةُ الفضلاتِ وصدىً يعوي في داخلك.

كنت ميتاً، يُغبطني السكون من حولي، يغبطني الغيابُ الذي صار مكاني، والعتمةُ التي أحْسَنت وِفادتي، ورفاق لي، وأبٌ، وأختٌ وآخرون جمعوا المسرّات الصغيرة ورحلوا إلى ما يخفيه الترابُ ولا يسُرّ به إلّا لمن يمازجه ترابَ جسمه، والترابُ ليس

وقتاً، كما ظننت، والتراب ليس مكاناً، كما ظننت أيضاً، بل الحالُ التي أقام عليها الشوكُ والشجرُ، وأقام فيها الراحلون إلى انتظار، إلى رجاء انتظار لا ينقضي انتظارُه.

ورجائي كان أن يمازجني الترابُ ترابَه، حين أَفَقْتُ. جُبِلَتْه حفنة منّي بعرقِ جسدِها، وأَنْهَضَتْني، ومَسَحَتْ عنّي القتامةَ، وجَعَلَتْ لي يوماً من موعدِها، وجَعَلت لي جسماً من لَمْسَتِها ومِنَ الشوق إليها، وجَعَلَتْ لي وقتاً مِن انتظارِها، وعيشاً أُقيمُ فيه على الحافَّة لا أَبرح.

طرفٌ من خيط، أو ربَّما رجاءُ طيفِها المُقبلِ من بَعيد، يُمسكُ بي على الحافّة. لمسةُ إصبع رقيقةٍ أيقظتني، ألفَيْتُني طيفاً لا يومَ لي، لا وقتَ، لا جسمَ، لا باصرة. فأعطتني أن أكون بها وصار لي يومٌ ووقتٌ وجسمٌ وباصرة.

وأنتظرُ. ليس لي إلّا انتظارها. حيث أُقيم.

غيابُها ليس وقتاً. بل المكان الذي لا أكون فيه. والمكان الذي لا أكون في سواه.

من الأيّام، ليس كلّ يوم هو اليوم.

من الأوقات، ليس كلّ وقت هو الوقت.

فقط مسرّاتُ هنيهةٍ، فأكون كما لا يقدر كائنٌ أن يكون.

غير ذلك، أحْوالُ التُّرابْ.

مُجرَّدُ تَعَبْ

[ألتعب: هو الملاكُ الذي يَلمس إصبعَ ملكٍ نائم،
فيما يواصلُ الملوك الآخرون نومَهم الخلوَ من الأحلام.]

(بيتر هاندكه)

بارقةٌ واحدة، ليس، بالضرورة، من عندِ الله.

إشارةُ يَد. مُجرَّد تلميحْ. حتَّى ولو كان الإلماحُ كاذباً.

فأُصدِّقُ أنَّ كلَّ هذا تَعَبٌ.

تَعَبٌ فقط، تَعِبَ الرجلُ يتعبُ تعباً. فَقَطْ. كمِثْلِ ما يُصرَّف عليه الفعل. أو كمثل ما يُضني جُسومَ الحمَّالين وعمَّال المناجم والسائرين أبداً، والمحكومين وبغال المهرّبين والقادة، والقانطين والمريدين كافة في دروب المشقّات.

فأصدّق أنَّ كلَّ هذا تعب ويزولُ، كما تزول الأعراضُ من كلّ شيء، لأنَّها الأعراض وليست الشيء وإن كانت توهمُه (أي الشيء) لبعضِ الوقتِ أنَّها هو لشدَّة ما تساكنه فيصبح مظهراً لها وتصبح مظهراً له. كما يكون الصداع انفجاراً كونياً متواصلاً في الرأس، والعياءُ رغبةً في التلاشي. تَعَبٌ فقط. ليس علّةً وأوجاعاً تروض جسمَكَ عليها، وتبرأُ منها

بعبوّات الكيمياء الملوّنة، وإرشادات الطبيب، وزمٌ النفس تكابدُ أهواءها. ليسَ الألمُ الذي يجعلك تشعر بشدّة ما يؤلمك. تصبح يَدُك، مثلًا، هي اليدُ ولا شيء سواها. الرئة هي الرئة. والقلب هو القلب. فالمؤلم هو الماثل في جسمك، مستحوذاً عليه، ممتلكاً إيّاه، ويجعل من روحِك مُجرَّد وعيٍ له.

ولكنَّ التعب...

أحسبُ أنّه مجرّد فكرة خاطئة. عياؤها في أن تكون سبباً لزوالها، لا بل رغبة فيه. مجرَّد فكرة. كأن ترغب، بالفكر وحده، أن تتلاشى، أن تتخفّف من الأحمال التي أصبحت، فجأةً، ثقيلة. فوق طاقتك، فوق احتمالك. حتّى الخطوات تكتسب وزناً. فكرة النهار، مثلًا. لا تجد، مهما اجتهدت، في مصنّف للثقاة أنَّ النهار جسم من الأجسام التي يتقدّم بها الكون في وجوده المادّي. وإن فَعَلْتَ، سَخِرت منك القواميس وازدرتك المعارفُ، حتى ما لا يجاوز درجةَ الصفرِ منها. فكرةُ النهار، إذاً. حين يُحصي وعيُك الشقيّ مواقيته بأعشار الثانية، لا الثانية. وبالأمتار والسنتيمترات مسار شمسه الهائل بين الشروق والمغيب. وبالأطنان، آلافها المؤلّفة، الأجسام التي تدبّ عليه، من إسمنت ومعدن وبشر ودواب. وبالأرقام الفلكية مقدار ما يُقال فيه من كلام وما لا يُقال. وما قد يحدث فيه أو لا يحدث.

وعدد الولادات وعدد الوفيات. والرقم الهائل في حساب الأكاذيب والمفارقات والمصادفات.

ومقدار ما فيه من الحياة، ويخيفك.

فكرة النهار، إذاً. أحسب أنّها ما يفوق صخرة. لكنّها مجرّد فكرة. وتحملها في رأسك، في مكان ما من دماغك. وتنهض بها، وتسير بها، وتعمل بها، وتحبّ وتكره وتحزن وتفرح بها. ولا تشعر حتى بثقلٍ في أجفانك. ثمّ يأتي التعب. يأتي، ويقول لك أحدهم: إنّه مجرّد تعب. م.ج.ر.د.ت.ع.ب. أمر بسيط. فقط ستشعر لبعض الوقت، أنّ كلّ شيء هنا، أقصد في العالم من حولك، صار له حجم وثقل. لن ترى الشروق أو الغروب كما كنت تفعل في السابق. وإن صادفت أحداً، في الشارع أو المقهى أو في مكان عملك، لن يكون كما اعتدت أن ترى أحداً في وقت آخر.

ولا بأس إذا جَعَلْتَ تبكي، بين الحينِ والآخر، لأسبابٍ تافهة، أو بلا سبب، هكذا تبكي، لأنّك أصبحت العبءَ الذي ستحوله طيلةَ العمر على كتفيك. أو لأنَّك أحببتَ ولا تقوى على العيش لأجل من تحبّ، لشدّة ما أوهنك التعب، لشدّة ما لاشَاكَ وبدَّدك وغَيَّبك وجَعَلَكَ رُكاماً. فكيف تقوى على العيش حفنةُ الركامْ؟

لكنَّه مُجرَّد تعبْ.

تعبٌ كَمِثْلِ أن تنتبهَ فجأةً وتجدَ أنَّك في المكان

الخطأ، في اليومِ الخَطَأ. وتجد أنّك، نفسك، الرجل الخطأ. ومع ذلك تتظاهر بأنّ ما وجدته في هذه الأخطاء كلّها هو الصواب الذي أتاح لك أن تحيا إلى الآن، وحين تنهار الأشياء من حولك، وتقيم على العتبة طويلًا وكثيراً وبإفراطٍ ما بعده إفراط، تحسب أنّه مُجرَّد تَعَبْ. تَعِبَ الرجلُ يتعَبُ تَعَباً. كمثلِ ما يتعبُ الحمَّالون. . . الخ. وإنّ التعبَ فكرةٌ خاطئة، لكنّها لا تزول. القليلُ منها وَهَنٌ يُلاشِيْكَ عند اليقظة. والمقدارُ منها إنهاكٌ يُلاشيكَ عند النوم. ليست العِلَّة أو المرض الذي يقتلك. بل الفكرة التي تحييك، إذا كان إحياءُ الرميمِ حياةً، والفكرةُ التي تحيا معك، في داخِلِك. ليس الموت الذي يُميتكَ بل الموتُ الذي يحيا في داخلك. الموتُ الذي يحيا بك.

وتصدّقُ أنَّ كلَّ هذا تَعبٌ.

أكاذيبُ النافذة

«تَجلَّتْ في تَجليها، الوجودَ لِناظري
فـفـي كـلِّ مَـرئـيٍّ أراهـا بـرؤيـةِ»

(ابن الفارض)

«فما غابَ عن عيني خَيالُكِ لحظةً
ولا زالَ عـنـهـا، والخـبـلُ يَـزولُ»

(جميل بن معمر)

أَعْيَتْنِي حيلةُ يدي، حين تتظاهر بالخفَّةِ، وترسمُ ظلالًا على الورق، هي ظلالُ حيلتها، وليس ما أريدُ أَنْ أكتبْ. ما أريدُ أَنْ أقولْ.

أَعْيَتْنِيْ الرَّغْبةُ في أَنْ أكون هنا، بين جَمْعٍ من الناسِ أو قِلَّةٍ منهم، مُنصرفاً عنهم، ومنصرفاً إليهم، وفي كِلْتا الحَالين، أُبادلهم بسمةَ مَنْ يرى الأشياءَ زائلةً، وهو معها، ومَنْ يرى أنَّ الإقامةَ، ها هنا، لن تطول.

وأَعْيَتْني هذه الأَوعيةُ الجوفاءُ التي تَزْعم أَنّها الأوقات بين الأمسِ واليوم، وهذه الأصداءُ التي تَزْعم أَنّها أطيافُ الضحكاتِ التي تَلاشَتْ، والكلام الذي تردّده خافتاً، ولا أسمعُ منه إلاّ الهَمْسَ الذي قَاد سِوايَ إلى الجُنون.

أَعْيَتْنِيْ الغُرفُ بوحشتِها الباذخةِ. والجدرانُ إذْ تُثابر على صمتِ الجُدران. والهواءُ الذي يُقلِّد هواءً سابقاً. والنوافذُ الكاذبةُ التي أَوْهَمَتْنِيْ أنَّ ما أَراهُ هو

الخارجُ ومشهدُه، وليسَ الغَبَش الذي في عَينَيّ.

أَعْيَتْني صُحْبَةُ الأشياءِ، مِنْ حَولي، أَصنعُ لها سِيَراً وأعماراً، وأُخاطِبُها بِنَثْرِ عَيائي الذي جَعَلْتُ منه الأشياءَ وما شُفيتُ مِنَ العَياءِ فَخاطَبَتْني الأشياءُ بِنَثْر مواتِها الذي جَعَلَتْنِي منه وما شُفيتُ مِنَ المَواتْ.

قُلتُ، لا أمكثُ في هذا المكان الذي أرى منه الشجرةَ المستوحدةَ، ربَّما كانت الشجرة من أكاذيب النافذةْ. لا أمكثُ في هذا المكان، ربّما كن الطيفُ الذي لاحَ لي على الناصيةِ من أكاذيبِ النافذةِ أيضاً، وربّما كانت عيناي.

قُلتُ ربّما أَفْقَدني التّحديقُ في البعيدِ بَاصرةً لم أُحسنْ تَقْليبها بين أخيلةِ الوافدين مِنْ غِبْطةِ النّهار إلى غبطةِ النهار. وصَرَفْتُ العامَ، تلوَ العامِ، أرى الأشياءَ التي ما عادَتْ هنا، لكنَّها مَكَثَتْ في عَينيّ. ولا تُبْصِرُ العينان الأشياءَ التي مَكَثَتْ فيها، بَل تَجْعَلُها كلَّ ما في استطاعةِ العينين أن تبصرا. حتّى إذا بَكَتْ سَالتِ الأشياءُ رقراقاً في المَسِيْل.

إذا سالت الأشياءُ من العينِ زَالَتْ وإنْ كان زَوالُها التّحريقْ. ولكنْ. . .

أَعْيَاني الغَبَشُ الذي أرى فيه وجهاً على الدّوام. ولا يَسيلُ، شأن الأشياءِ الأُخَر. وَجْهٌ لا تَمسّه الأَنْمُل ولا تحتوي دفأه اليدان. أُبصرُه حينَ أُبصرُ وأُبصرهُ حين لا أُبْصِر. غَبَشٌ كَمِثْلِ الضَّبابِ قَبْل التلاشي لا يَسيل دمعاً، ولا يقيمُ في المشهدِ

المترامي لخِدعةِ النافذةِ. وجهٌ ليس صورة وجه. ليس ذكراه، لأنّ الذكرى وهمُ ما يزول. وجهٌ لا يزول. لا تُخَالِطُ سِيْماءَه تصاريفَ نِسْيانٍ يَمْكُثُ غَبَشاً في العينِ التي لا تُبصرُ ويَمْكثُ تحريقاً في الراحتين.

أعْياني التّحديقُ في البَعيدِ ولا أرى وجهاً يُشبه ما يَجتمع في عينيّ من الرقراقِ الذي لا يسيل، أو يُشبه الحرقةَ التي جَعَلَتْ يديّ حين تتظاهران بخفّة النسيان، تصنعان ظلالاً على الورق، هي حُرقةُ راحتيهما، لا الكتابة. ليس ما أريدُ أنْ أكتب. وليس ما أُريد أنْ أقول. بل الوجه الذي أُبصرُه حين أبصر، وأُبصرُه حين لا أُبصر.

وأعياني اليَقينُ أنَّ الأشياءَ زائلةٌ مثل عينيّ. فيتراءى لي الوجهُ غبشاً كَوَسَنٍ ناعم. وأُغمضُ عينيَّ ريثما يُصبح غِلالةً شفيفةً فوقهما، تُغطّيهما، تكسوهما، وأُغمضُ عينيَّ، سيّان عندي، إلى الأبَدْ. فَأَعْلَمُ أنّني معه، لن أكون وحيداً هناك.

ربّما كُنْتُ كالعميان.

لا أرى العتمةَ، بل أرى لوناً وحيداً.

ليس السواد، بل طيفُه المنوَّر من دونِ إضاءة.

وجهٌ لها يَدُلّني. وتَدُلّني يداي.

سوفَ تحيا مِنْ بَعْدي

«كلُّ الأشياءِ التي أراها، سوف تحيا من بعدي»

(أنّا أخمانوفا)

أُغْبِطُكَ نعمةَ الخَشبِ، نعمةَ النسيان، أَيُّها الباب.

سوفَ تحيا من بعدي.

وسوف تسألُك الأيدي، برقّةِ الأيدي وأناتِها، عن الرجلِ الذي أَغْوتَه فراشةُ العزلات، في الدّاخل، وأَغواهُ الصمتُ الذي هو عبارةُ الغياب، والتنفُّس الأعمق لروحِ الأمكنةِ الشاغرة.

أُغْبطُكَ نعمةَ الحَجَر، نعمةَ الصَمْت، أَيُّها المكان.

سوف تحيا من بعدي.

وسوف تسألُك عيونُ العابرين، برقّةِ العيونِ وحَيْرتِها، عن الرّجلِ الذي كان هنا لا يزال، قَبْلَ أن تهتدي إليه أطيافُ العابرين وتَصْحَبُه، في موكبِ الصَمتِ، إلى المكانِ البعيد. وسوف تراكَ عيونُ العابرين مقيماً على صدى الضواحي، بين وَعْرٍ وأشواكْ، وتمرُّ بك الآطيافُ كأنَّك، أَيُّها المكانُ، ما كنتَ يوماً إلّا لَهَفَ الرَّجلِ الذي كان هنا، حين يعود

إليك بعد تَرْحالِ الأماسي، بَعْدَ أسفارِ الظّنون.

أُغْبِطُكَ نعمةَ الصَبْر، نعمةَ أنْ تمكثَ غفلاً، أيُّها المِشْجَبْ.

سوف تحيا من بعدي. والقبعةُ العتيقةُ، وفروها المسنُّ والمعطفُ الذي لا يزال يَكْنزُ رائحة الشّقاء. لن تَحْمِلَ عصاهُ بعدَ اليوم، ولا سترتَه المُتعبةْ. وسوف تقف في الرُكنِ بين العَتَبة وبابِ الرُدهة. ولن يأتي زُوَّارُ الليل. ولن يأتي زُوَّار الصباح، ولن ينتبهَ أَحَدٌ إلى عِنادِكَ البُنيِّ الدّاكن، إلى حضورك النحيلِ الذي يُضاعِفُ الشغورَ مِنْ حولِك.

سوف تحيا من بعدي. وسوف تحيا الأشياءُ ولا يزولُ منها إلّا العَرَضُ الذي رَأَتْه عينا الرجلِ الذي كان هنا لا يَزالْ، أالعَرَضُ الذي أقامَتْ فيه أعواماً هي الأعمارُ كلُّها. وسوف يحيا الهواءُ مِنْ بعدي. والسّكونُ الذي يَنام في قَلْبِ الشّجرة. والشّجرةُ التي تُنَقِّل ظِلَّها كالمَلِكِ الخاسِر. وسوف يحيا الكلبُ الجائمُ فوق حَرّ الظهيرة والحصانُ الذي يَجرُّ العربةَ وحوذيَّها الضّرير، والسلحفاةُ والضِفْدَع. والغرابُ والدوريُّ والهُدْهُد. وسوف يحيا الوقتُ العاثِرُ، والأرملةُ والموظَّفُ والشّاعرُ وصانعُ العَجَلات، وسوف يحيا الرَّجل الذي كان هنا ولا يَزال، مِنْ بعدي. ومرّةً في كل عام، في ١٣ آب ١٩٥٥، يترك باقةً من الزنبق فوق الحجر الأمْلَس لوحشتي. ومرّةً في كلّ عام، يَشربُ كأساً لذكراي قَبْلَ أنْ تزول.

أُغْبِطُكَ نعمةَ الزّوال، نعمةَ التّلاشي، أيُّها الضوءُ.

سوف تحيا من بعدي.

وسوف تنيرُ النافذةَ بوهْجٍ من الأصباح التي لن يراها الرَّجُل الذي كان هنا لا يزال، قَبْل أَنْ يُدركَه شَغَفُ العتمةِ إذا أَعْتَمت النّوافذُ مثل قَلْبِه، وإذا أعتَمَ كَمِثْلِ ما تُعْتِمُ عينان كئيبتان. وسوف تنيرُ الغرفَةَ التي لن أَكونَ فيها. والكرسيَّ الخالي من جسمي القليل، والسريرَ الخُلـ من أرقي، والورقَة التي لم تُكتَبُ عليها قصيدتي، والوجنةَ التي لم أُقبّلها هذا الصباح، واليدَ التي لم أُصافِح، والأَلَم الذي ما إعتراني لأنَّه جاءَ ولمْ يَجِدْني، وسوف يحيا من بعدي.

أُغْبِطُكَ الأَلَمَ، نعمةَ الأَلَمْ، أيُّها الرجلُ الذي كان هنا لا يزال.

سوف تحيا من بعدي.

وذاتَ صباح، في ١٣ آب ١٩٥٥، سوف تجمع كلَّ هذه الأوراق .تُشعلُ النّارَ فيها. وبعدَ تفكير طويل، وبعدَ سيرٍ طويل بين النواحي، سوف تُعرِّج على الرّخامِ الأملسِ المصليِّ لنومي وتصنع باقةً من الزنبق العَاجيّ. وتمكثُ هنيهةً حائرَ اليدين، زائِغَ النظراتِ، مُرتبكاً.

أُغْبِطُكَ وفاءَكَ، نعمةَ الوَفاءِ، أيُّها الرّجلُ الذي كان هنا لا يزال.

مرّةً في كلِّ عام تأتي إليَّ لتزورَ قَبْرَك.

صدر للمؤلف

مشاغل رجل هادئ جداً
(قصائد)
د ر العالم الجديد، ١٩٨٠

لأروي كمن يخاف أن يرى
(قصائد)
دار المطبوعات الشرقية، ١٩٨٥

فقط لو يدك
(قصائد)
دار الفارابي، ١٩٩٠

صحبة الظلال
(نصوص)
دار ميريم، ١٩٩٢

مهن القسوة
(قصائد)
دار الفارابي، ١٩٩٣

تصميم الغلاف : رشا سلطي